بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست العدد

المقدّمة 7

المبحث الأوّل 9

«ولّى زمن الهزائم، وأتى زمن الانتصارات»: الشعار الموازن لانقلاب تأريخي

مُلخّص 10

المقدّمة 12

أوّلًا: ثنائيّة النصر/الهزيمة في العقل العربي 13

ثانيًا: تغيّر المشهد العربي وانقلاب عضويّ في شكل الثقافة والانتماء 21

خلاصة 29

المبحث الثاني 33

ثقافة المقاومة.. جهاد وانتصار

مُلخّص 34

المقدّمة 35

أوّلًا: المستوى الإنسانيّ 37

ثانيًا: المستوى الاجتماعيّ 46

خلاصة 53

المبحث الثالث 55

«حسّان» المسيّرة المسيرة: مقاومة لا تهدأ

مُلخّص 56

المقدّمة 56

أوّلًا: لمحة تاريخيّة 57
ثانيًا: المقاومة والمجتمع المقاوم 59
ثالثًا: كيف نقلت المقاومة المجتمع العربي من مفهوم الانكسار إلى مفهوم الانتصار؟ ...
..... 62
لائحة المصادر والمراجع 71

المقدمة

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[1]. تكشف هذه الآية عن موقع النصر في حسابات أرباح الجهاد وخسائره، بدرجة عالية. ويكاد يتّفق المفسرون على أنّ المراد من الحُسنيين في الآية هو إحدى النتيجتين اللتين يمكن أن تنتهي إليهما أيّ معركة يخوضها المسلمون مع عدوّهم. فإمّا أن تنتهي هذه المعركة بالنصر والغلبة، وإمّا أن تنتهي بالشهادة والفوز بلقاء الله.

ويُستفاد من هذه الآية مجموعة معانٍ ذات صلة بما نحن فيه منها:

- اختلاف المؤمنين عن غيرهم في النظرة إلى الأمور، فبينما يرى المنافق أو الكافر أنّ الفوز ينحصر في الكسب الدنيويّ والسيطرة على العباد والبلاد يرى المؤمن أنّ المهمّ هو أداء الواجب والخروج عن عهدة التكليف. فسواء عنده النصر والهزيمة عندما يكون كلٌّ منهما في طاعة الله. وهذا يذكّرنا بقول أمير المؤمنين عليّ × في خطبة المتّقين: «نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ»[2]. كما يذكّر بالقول المنسوب إلى أكثر من شخص، منهم عمّار بن ياسر عندما دنت منه المنيّة، فطلب شيئًا من الشراب فأُتي به فتذكّر وعد النبيّ صلى الله عليه وآله إيّاه بأن آخر نصيبه من الدنيا كأس من اللبن، ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهِ لَوْ هَزَمُونَا حَتَّى يُبَلِغُوا بِنَا سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا عَلَى الحَقِّ، وَأَنَّهُمْ عَلَى البَاطِلِ»[3].

- اعتقاد المؤمنين بخضوع الكون وما فيه لإرادة الله تعالى، وأنّه لا يريد لأهل الإيمان إلا الخير والأحسن وليس الحسن فحسب. وبالتالي ما دامت الأمور تجري في سبيل الله فهي الخيار الأحسن كائنًا ما كان هذا الخيار. ولا يهمس المؤمن بالاعتراض على إرادة الله ومشيئته، بل يستعذب أمرّ الخيارات ويراها حلوة ما دامت خاضعةً لإرادة الله عزّ وجلّ. وما أقرب القولين المشهورين اللذين يُنسب أحدهما إلى الإمام

1 – سورة التوبة: الآية 52.
2 – الإمام عليّ (عليه السلام)، نهج البلاغة، خطبة المتّقين.
3 – الشيخ المفيد، الاختصاص، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1993م، ص 14.

الحسين × عندما استشهد ابنه الرضيع بين يديه فقال: «هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله»، والآخر المنسوب إلى السيدة زينب ÷ عندما هتفت في وجه ابن زياد قائلةً: «ما رأيت إلا جميلًا، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم...». نعم القتل في سبيل الله في عين زينب جميل يشبه لجوء النعسان إلى مضجعه. والشهادة في سبيل الله في مقاييس التقييم الإلهيّ إحدى الحسنيين كالنصر على حدٍّ سواء.

- الدرس الثالث الذي يُستفاد من الآية هو أنّ على المؤمن أن لا يحسب أنّ الدنيا يجب أن تبقى دائمًا طوع يديه ورهن إشارته ينال منها ما يحبّ ولا ينتقل فيها إلّا من نصر دنيويّ إلى نصر. بل على المؤمن أن يتوقّع الصعود والهبوط في حسابات الدنيا، والمقياس الأهمّ في نظره هو عاقبة الأمور ونهاية المطاف، ولو على المدى البعيد، فالنصر الذي قد يناله المنافق في هذه الدنيا مُرّ العاقبة، والشهادة التي ينالها المؤمن هي إحدى الحسنيين، عندما يؤخذ المشهد كلّه على هذا الأساس ولو اقتضى الأمر توسيع النظرة إلى عمر البشريّة كلّها. فربّ دمٍ يراق يتحوّل إلى نصر يروي دوحة الأهداف الإلهيّة ولو بعد حين. ومن هنا ورد عن الإمام أبي جعفر × في تفسير هذه الآية أنّه قال: «إما موت في طاعة الله وإدراك ظهور إمام...»[1]. وبناءً على قاعدة الفوز بإحدى الحسنين فقد ولّى زمن الهزائم، وتكلّلت مسيرتنا الجهادية بالنصر والفوز الدائمين.

ختامًا لا يسعنا إلّا تقديم خالص الشكر والامتنان للباحثين الذين سهموا في هذا العدد، راجين الله تعالى لهم التوفيق، والاستفادة من وفير علمهم وفكرهم الأصيل. وهم البروفسور والناقد الأدبي الدكتور علي مهدي زيتون. والأستاذة في الجامعة اللبنانية الدكتورة خديجة عبدالله شهاب، والكاتب والشاعر الشّيخ علي حمادي العاملي.

والحمدلله رب العالمين

مركز المعارف للدراسات الثقافية
Alma'aref center for cultural studies

1 - الكليني، الكافي، ج 8، ص 286، حديث 431.

المبحث الأوَّل

«ولّى زمن الهزائم، وأتى زمن الانتصارات»؛ الشعار الموازن لانقلاب تأريخي

مُلخّص

حاولت الفلسفات الوضعيّة والإيدولوجيات الدّينية، مذ خروج الإنسانيّة من طور البدائيّة، إنصاف الإنسان المظلوم والمضطهد، والتنظير لمفاهيم الحقّ والعدالة والدّفاع عن النّفس والعرض والكرامة. ولم يكن هناك من فصال أو اختلاف حول قيم أصيلة، عدد منها نابع من تكوين الفطرة البشريّة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تحويرها عن مسارها الطبيعي. لكن مع ازدياد حركة التطوّر العلمي واكتشافاته، طفحت إلى الواقع فلسفة المجتمعات التي تحكّمت بهذه الحركة منذ قرون، واستبعدت قسرًا فلسفات مجتمعات أخرى، وفي مقدّمتها المعرفيّة الإسلاميّة. فقد أدّت حفريُّات ثقافة الفلسفة الغربيّة الحديثة إلى تشكيل أخلاقيُّات قطعت تواصل البنية الفلسفيّة- الفكريّة لرحلة الإنسان المعاصر، وحدّدت إطار تعاملاتها مع الظواهر الطبيعيّة في سبيل الاستحكام بمقاليد الكون؛ فكانت الأدوات السياسيّة والثقافيّة لخدمة حملات الإبادة المنطلقة من عنصريّة بغيضة حينًا، ومن منظومة الاستشراق البربريّة حينًا آخر، ففرضت مشاريعها على العالم الإنساني.

لقد استحكمت تلك الفلسفة بالأخلاقيّات العامّة، بحيث إنّ «الإبادة هي بنية وليست حدثًا»[1]؛ وهي جزءٌ من الحداثة الماديّة التي استُبدلت بالاستعمار والاستيطان، والذي كان سائدًا في القرون السابقة، الروح الكولونياليّة، بعد التشكل الجديد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتحديثاتها في القرن العشرين، مع حروب سيطرة الهيمنة الثقافيّة والسياسّية والاقتصاديّة، وقبلها العسكريّة، والمستمرّة حتى اليوم في القرن الحادي والعشرين. هذا التسلسل، وما يحمله من دلالات، يشير إلى الرابط العميق بين زمن الحداثة الماديّة والروح الكولونياليّة التي مارست الإبادة بوسائل متعدّدة. يستدعينا، في هذا السياق، الروح الحداثيّة التي تميّز بها الفيلسوف القيادي، في الحركة الصهيونية - « فلاديمير جابوتينسكي»، وهو يهوديّ مُلحد وعضو في المجلس الوطني اليهودي، حين نشر دراسته الشهيرة في العام

1 – هذا توصيف أورده «باتريك وولف» في دراسة له حظيت بصَدى كبير ، وعنوانها «الكولونيالية الاستيطانية والقضاء على أصحاب الأرض».

1923 بعنوان «الحائط الحديدي»، تمثّلت بعمقها التسويغي للسيادة الصهيونيّة، موقفًا أساسيًا حين يحصر مفاهيمه باتجاه دعم سياسة الاستئصال للفلسطينيين استنادًا إلى مفهوم الإبادة لـ«الشعوب الأدنى».

هذه السّيادة مُنبثقة من عِقدة التفوق الحداثي الذي يخاطب به «جابوتينسكي» المؤسّسة الفكريّة العميقة للحداثة الغربيّة، إذ يقول: «كان للكولونياليّة الصهيونيّة تفسيرها الخاص، وهو التفسير الوحيد الممكن غير القابل للتغيير»، ويقول: «على الكولونياليّة الصهيونيّة التقدّم بغض النظر عن أهل البلاد الأصليين- فلسطين». ولكن عندما نتساءل بجدليّة: من استخدم من، الصهيونية أم الحداثة الماديّة؟ من المهم الإشارة إلى أنّ هذا الرابط البنيوي بين الحداثة الماديّة والإبادة يتمثّل في تاريخ الأمميّة العالميّة بصور ومشاريع عديدة، عبر فرض السّيادة المعرفيّة الغربيّة، فهذه السّيادة لا تُسقط المصداقية وحسب، إنّما تسلب من العقل العالمي القدرة الحرّة المقاومة لأيدولوجيات إبادة واستيطان ثقافي قهري، يحرم الإنسانيّة من الحقيقة العادلة للمعرفة المستقلّة، لتستمر الآلة الإله في تدمير العالم، حين تُسحق القيم الإنسانيّة لصالح اللذة الماديّة.

هذه الأخلاقيات/ القضية سادت طويلًا في عالمنا الحديث والمعاصر؛ حتى انبثاق روح أخلاقيَّات مغايرة لطالما كانت في القعر؛ بل حتى في هوامش القعر، أظهرتها للعلن مجددًا السّرديّة الإسلاميّة مع «ولاية الفقيه»؛ حين تجلّت ثقافة المقاومة والجهاد والتصدّي والتحدّي بشكلها السّيادي والمعرفي القائم على مبادئ العلم وقوة المعرفة، والمنطلقة من الجوهر العلمي للفلسفة الإسلاميّة. وهي فلسفة تؤمن بالسّنن التاريخيّة ومفاعيلها، وبأنّ التغيير يتحقّق بالعمل المُمنهج والصادق، ليكون الرابط المُعتمد بين الحال الوجوديّة وتسلسل الحضارات، ويردّ الاعتبار الأخلاقي الحرّ الشريف للإنسانيّة. لذلك؛ يكشف شعار «ولّى زمن الهزائم وأتى زمن الانتصارات»، والذي هو نتيجة حتميّة لمفاعيل الأخلاقيّة الإسلاميّة، عن هذا الشكل الفلسفي المغاير المستمر في قلب المعادلات الزائفة.

المقدّمة

«ولّى زمن الهزائم وأتى زمن الانتصارات»؛ هو شعار كشف عن تأسيس لمفهوم الانتصار في معركتنا مع العدو الصهيونيّ، فقد جدّد مجد الأمّة العربيّة والإسلاميّة بعد تاريخ حافل بالهزائم. وكان من شأنه أن فتح باب «ثقافة المقاومة» على مصرعيه باتجاه امتد إلى الوطن العربي الذي ما يزال يعيش خيبات الهزائم والانكسارات، فبدأت انتصارات المقاومة في لبنان وفلسطين بحفر وعي جديد، بخاصّة عند الأجيال الحالية. وما نشهده، مؤخرًا، من أحداث في فلسطين المحتلة يؤكد أنّنا أمّة تستعيد زخم الشعور بالقوّة وروح التحدّي والمواجهة حتى النصر المبين.

لذلك؛ أهم ما يمكن التركيز عليه في هذا البحث: تعريفات عن مفاهيم الهزيمة والانتصار ودورهما في نهضة الأمم أو إسقاطها، ودور مفهوم الانتصار (ولّى زمن الهزائم) في تعزيز ثقافة المقاومة، وتشكيل رؤية متقدمّة في الصراع مع العدو الصهيوني.

أوّلًا: ثنائيّة النصر/ الهزيمة في العقل العربي

ترى «ما بعد الحداثة» أنّ الثّنائيّات الضّدّيّة نتاج مرحلة الحداثة. هذه المرحلة الّتي رأت أنّ المفردة الأولى داخل الثّنائيّة متعالية على الثّانية بينهما. فمفردة «الخير» متعالية على مفردة «الشّرّ» في الثّنائيّة الضّدّيّة الخير/ الشّرّ. ولقد سفّهت «ما بعد الحداثة» هذا التّقديم وذلك التّعالي من خلال نكرانها وجود سرديّات كبرى (قضايا كبرى) تفرض مثل ذلك التّعالي. لا يوجد بالنّسبة إلى «ما بعد الحداثة» سوى سرديّات صغرى، وتفاصيل حياة الفرد اليوميّة الّتي لا يجمعها جامع أخلاقي أو اجتماعي. وممّا يجدر ذكره أنّ «ما بعد الحداثة» لبوسٌ تسعى الصّهيونيّة العالميّة إلباسه كلّ مجتمع يحمل بذور العداء لها.

إنّ ثنائيّة النّصر / الهزيمة ثنائيّة ضدّيّة؛ يعني فيها تعالي النّصر على الهزيمة، حياة سويّة يمكن أن يعيشها المنتصر بناءً على ذلك التّعالي.

يصل بنا ذلك لكي نقول: إنّ ثنائيّة النّصر/ الهزيمة ثنائيّة ضدّيّة؛ يعني فيها تعالي النّصر على الهزيمة، حياة سويّة يمكن أن يعيشها المنتصر بناء على ذلك التّعالي. وإذا وضعنا مجتمعنا العربي الإسلامي في ميزانها، عاد بنا الزّمن إلى مرحلتين تاريخيّتين أسّستا لحياتنا المعاصرة. أسّست المرحلة الملوكيّة، ومن بعدها المرحلة العثمانيّة، لتخلّف رهيب عرفته مجتمعاتنا. فإذا ما استنفد القرن الخامس الهجري الأبعاد التّقدّميّة الّتي تأسّست على الإسلام، جاء القرن السّادس الهجري قرن الصّليبيّين وما تبعه من قرون مملوكيّة ثمّ عثمانيّة لتوقف العقل العربي عن الإنتاج الثّقافي المبدع، ولتعطّله إلى حدّ الاستغلاق. وما ظهور ابن رشد وابن خلدون في هاتين المرحلتين المعتّمتين إلّا صيحة في وادٍ. وإذا سلّم العثمانيّون مجتمعاتنا المعطّلة عن التّفكير الجدّي للاستعمار الغربي، إنّما أدخلوها في نطاق تعالي مفردة «الهزيمة» على مفردة «الانتصار» ولحقبة بقيت مفاعيلها قائمة حتّى يومنا هذا.

أما إذا راقبنا إمكانيّة قيام صراعيّة داخل ثنائيّة الهزيمة/ الانتصار، في أثناء حضور الاستعمار الغربي في بلادنا، فإنّ محاولات تحرّر بلداننا المجزّأة إلى حدّ التّمزّق لم تكن محاولات استراتيجيّة. فقد رتّب الغرب لكلّ رقعة من هذه الدّويلات حاكمًا تابعًا له يؤمّن له هدفين: السّيطرة على الموادّ الأوليّة من نفط ومعادن، وجعل البلد سوقًا استهلاكيّة لمنتوجاته الصّناعيّة. ولئن استطاعت بعض البلدان العربيّة أو الإسلاميّة أن تبني لنفسها موقفًا مستقلًّا، إلّا أنّ طبيعتها القائمة على التّجزئة أبقتها ضعيفة غير قادرة على الفعل الصّحيح.

لعلّ أوّل انتصار سجلته إحدى مجتمعاتنا هو انتصار مصر/ جمال عبد النّاصر على العدوان الثّلاثي: (الإنكليزي، الفرنسي، الإسرائيلي) في العام 1956م، والّذي هاجمها انتقامًا من قرار عبد النّاصر إعلان تأميم قناة السّويس. وتمدّد هذا النّصر ليسجّل عمقًا جديدًا داخل المشروع الغربي، وذلك من خلال إقامة وحدة بين القطرين العربيّين: مصر وسوريا تحت مسمّى «الجمهوريّة العربيّة المتّحدة». ويبقى أنّ هذين الانتصارين ظلّا تحت نظر العين الغربيّة، وربيبتها إسرائيل. فقد جرى السّعي لإفراغهما من محتوييهما، خصوصًا أنّهما لم ينجحا في اقتلاع الكيان الإسرائيلي من جذوره وتحرير فلسطين.

لقد عاشا في ظلّ الهزيمة الكبرى الّتي مُني بها مجتمعنا. أعنى نجاح «مؤتمر بنرمان»[1] في تحقيق هدفه الكبير، زرع الكيان الإسرائيلي أسفينًا بين المشرق العربي ومغربه. ومؤتمر «بنرمان» دعت إليه السّياسة البريطانيّة بعد أن باتت مملكتها ممتدّة في أرجاء المعمورة، فلا تغيب عنها الشّمس. جمعت

1 – مؤتمر كامبل بنرمان، في لندن العام 1905 واستمرت جلساته حتى العام 1907، بدعوة سريّة من حزب المحافظين البريطانيين بهدف إيجاد آليّة تحافظ على تفوق الدّول الاستعماريّة ومكاسبها إلى أطول أمد ممكن. وقُدِم فكرة المشروع لحزب الأحرار البريطاني الحاكم في ذلك الوقت، وضمّ الدّول الاستعماريّة أنذاك: بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، إسبانيا، إيطاليا. وفي نهاية المؤتمر خرجوا بوثيقة سريّة سموها «وثيقة كامبل» نسبة إلى رئيس الوزراء البريطاني آنذاك هنري كامبل بانرمان. وهو أخطر مؤتمر حصل لتدمير الأمة العربيّة، خاصّة الإسلاميّة، وكان هدفه إسقاط النهضة وعدم استقرار المنطقة.

هذه السّياسة علماء من اختصاصات مختلفة ومتعدّدة، وطرحت عليهم السّؤال الآتي: بريطانيا اليوم في أحسن أيّامها: ماذا عليها أن تفعل لتحافظ على هذه السّيطرة؟ وكان الجواب: زرع جسم غريب معادٍ بين مشرق البلدان العربيّة ومغربها؛ لأنّ هذه البلدان إذا توحّدت قضت على مصالح الغرب وأحلامه كلّها.

لذلك؛ سعت بريطانيا بالتّعاون مع الصّهيونيّة العالميّة إلى إنشاء دولة إسرائيل. وإقامة مثل هذه الدّولة ليست علامة هزيمة لأيّ نهوض عربي محتمل فقط، ولكنّها حيلولة دون ذلك النّهوض أيضًا. وإذا استطاعت العصابات الصّهيونيّة بمساعدة الدّولة المستعمرة لفلسطين، نعني بها بريطانيا، أن تهزم الجيوش العربيّة كلّها الّتي تداعت للحيلولة دون قيام الكيان الإسرائيلي، إلّا أنّ القوّة الإسرائيليّة لم تستطع أن تدخل العقل العربي للتّفكير داخل دائرة الهزيمة. وذلك بسبب بدء انتشار الفكر اليساري في حياة ذلك العقل. فهذا الشّاعر العراقي «مظفّر النّواب» الّذي تناول تلك الهزيمة بشعره، لم يحسبها هزيمة قاطعة مانعة بقو لها :

سعت بريطانيا بالتّعاون مع الصّهيونيّة العالميّة إلى إنشاء دولة إسرائيل.

«هذي الأرض تسمّى بنت الصبح (فلسطين)

نساها العرب الرّحّل عند المتوسّط تجمع أزهار الرّمان

وساروا باديتين

ولمّا انتبهوا وجدوا كلّ طقوس العالم فيها

قالوا: مرثيّة

يا عرب الرّدّة قولوا مرثيّة»

ولئن بدا الأسف واضحًا على وقوع فلسطين فريسة في يد الإسرائيليّين، إلّا أنّ ذلك الوقوع جاء مشفوعًا بمن تسبّب به، أي عرب الرّدّة. ويستحضر هذا المتسبّب بالسقوط ما يشكّل معه ثنائيّة ضدّيّة، أعني به عرب التّقدّم. ويشير ذلك إلى أنّ الشّاعر «مظفّر النّواب»، بوصفه منتميًا إلى الثّقافة اليساريّة يحمل بعدًا تفاؤليًّا قوامه عرب التّقدّم الذّي افترض أنّهم قادرون على صنع نصر يمحو هزيمة عرب الرّدّة. ويضعنا هذا أمام ثنائيّ عرب التّقدّم/ عرب الرّدّة الّتي يتعالى فيها الطّرف الأوّل (عرب التّقدّم) على الطّرف الثّاني (عرب الرّدّة). ولا يبلغ هذا التّفاؤل مداه مع التّجارب العربيّة المتعثّرة، بدءًا بالعمل الفدائي الفلسطيني وانتهاء بتجهيز بعض الأنظمة العربيّة نفسها لصنع مثل ذلك النّصر. ولقد أنهك ذلك التّعثّر الثّقافة اليساريّة وجرّها في المحصّلة إلى الإحباط.

لعلّ مطوّلة الشاعر السوري نزار قبّاني، «بكائيّة إلى شمس حزيران»، عبّرت بقوّة عن وضع العقل العربي داخل دائرة الهزيمة. ولسنا نغالي إذا قلنا إنّ جيلًا من اليساريّين قد بلغ، مع هذه الظّروف، أرذل عمره. فقد استسلم في تفكيره إلى مقولة الجيش الّذي لا يُقهر. ونام على وخز ابر اليأس والهزيمة وتجرير أذيال الخيبة. ولقد دخل شعر الّذين حسبوا ذات يوم على اليسار، بوصفهم ممثّلين نموذجيّين للمثقّف العربي ما يقارب دائرة الرّومانسيّة الحزينة. ويبقى أن النّخبةُ العربيّة قد تعرّفت الثّقافةَ الغربيّة، في ظروف عجز تلك النخبة عن المشاركة في الإنتاج الثقافي العالمي، فحاولت أن تمتلك معرفة بها عبر حوار متنّوع الأشكال والمواقف معها، يتراوح بين الرّفض والقبول مرورًا بالموقف النقدي.

تعدّدت الجوانب التي تعامل معها العقل العربي مع تلك الثقافة أهمّها:

1. الفلسفتان الماركسيّة والوجوديّة، وإن كان للأولى من الحضور والقوّة والانتشار ما لم يتيسّر للثانية، وذلك بسبب الظروف السياسيّة والمرحلة التاريخيّة التي كانت تمر البلدان العربيّة بها، ظلّت الثانية حبيسة نخبة

محصورة عكس الماركسية التي تمثّل، بطبيعتها وتوجّهاتها، دعوة إلى الجماهيريّة، وإلى حلول ترفع الظلم عن الطبقات الشعبيّة. فهي تتوخّى الوصول الى العقل الجمعي للجماهير وتشغيله، لتحقيق الأهداف التي تسعى إليها. إنّها تريد أن تُملّكه معرفة بما اكتشفته من قوانين، وبمشاريعها الخاصة بالطبقة العاملة. كل ذلك عبر الانتشار الحزبي الذي طال شريحة عريضة من الناس، أفرادها موزّعون بين النخبة والعامّة. ولذلك استطاعت أن تؤدّي دورًا فاعلًا في تحديد طريقة حياة الكثيرين: تفكيرًا وخُلقًا وسلوكًا، ومن بينهم الشّعراء والكتّاب، فأثّرت في ما كتبوه تأثيرًا بيّنًا. ولذلك راجت في الأوساط الأدبيّة، وبشكل مبكّر في القرن الماضي، الدعوةُ إلى الأدب الملتزم تحت عنوان رسالة الأدب في مواجهة الدعوة إلى الفن للفن التي قلّ ممثّلوها إلى حدّ الغياب تقريبًا.

2. الأفكار القوميّة التي لاقت صدى طيبًا، في أوساط النخبة العربيّة، فتعدّدت أحزابها ومنابرها الصحافيّة وكتّابها المتبنّون إياها. ولقد عزّز حضور الاستعمار الغربي بشقّيه: المباشر وغير المباشر في بلادنا، فأسهمت هذه الأفكار في إنتاج وعي عام جيّد بحقيقة ما يجري في الساحة العربيّة. فقر أ العقل العربي معاهدة «سايكس - بيكو» قراءة سليمة حين رآها، ببعدها التجزيئي، وسيلة غربيّة تستهدف عامل القوة العربيّ، نعني به وحدة الأقطار العربيّة.

هذه اللوحة التي شكّلت عائقًا جوهريًا أمام رغبات الغربيين في السيطرة على الموادّ الخام، وجعل المجتمع العربي سوقًا استهلاكيًا لبضائعهم، والوعي السليم بأبعاد معاهدة «سايكس – بيكو»، لا يعني اهتداءً إلى الآلية التي تبطل مفاعيلها. ولعلّ العجز العربي عن إلغاء تلك المفاعيل ناجم، في بعض قصوره، عن الحضور الإسرائيلي في فلسطين. فالعقل الاستعماري الغربي أدرك أنّ الحكومات العربيّة، بوصفها الوكيل المعتمد عند الدول الغربيّة، أعجز من أن تصمد في وجه مصالح

عموم الناس إذا ما وجدوا من يحرّكهم ويقودهم، فزرعت بموجب مؤتمر «بنرمان البريطاني» الذي طرح على نفسه كيفيّة المحافظة على الإمبراطويّة الإنكليزية التي لا تغيب عنها الشمس، دولة إسرائيل في فلسطين، تحديدًا لتمثل شرخًا بين جانبي المجتمعات العربيّة والأفريقية والآسيوية من جهة، ولتشكّل شرطيًا يدعم الحكومات العربيّة الموالية ويحول دون قيام وحدة عربيّة أو أي تنمية تشكل تهديدًا للمصالح الغربيّة في المنطقة.

الثقافة القومية العربيّة، بفعل العمق العنصري الذي مورس على الشعوب العربيّة، سواء أتعلّق بتعالي الغربي واستباحته ثروات هذه الشعوب ودماء أبنائها، أم تعلّق بالعنصريَّة الإسرائيليّة التي مارست وتُمارس تطهيرًا عرقيًا لا مثيل له في التاريخ الحديث، كانت ردّ فعلها أن تتبنى بعدًا إنسانيًا لا يفكّر في تطهير عرقي ضدّ اليهود، إذا ما توافرت شروط النصر عليه. فليخرج من فلسطين من يريد الخروج من اليهود، وليبقَ فيها مواطنًا عربيًا من يشاء البقاء فيها. هذا، ولم تشكّل الدّعوة القومية تزمّتًا أدبيًا عند الشعراء والكتّاب المنضوين في صفوفها بفعل التحاور غير العلني بين الاتجاهين القومي واليساري، لوجودهما فوق ساحة واحدة. فانحاز الكثيرون من شعرائها إلى قصيدة التفعيلة، ولم يتمسكوا بالقوالب الشعرية الخليليّة كاملة مع أنّها تشكّل عمقًا ثقافيًا عربيًا متّصلًا بالتّراث. والشاعر اللبناني «موسى شعيب» كان حداثيّا في تعبيره عن همّه القوميّ، وكذلك عدد كبير من الروائيين ذوي المنحى القومي، في أعمالهم الروائّية.

3. المعرفة الأدبيّة، عبر مدارس ومذاهب متنوعة، كان لها حضورها في نتاج عصر النهضة الأدبي، كما كان لها حضورها في نتاج العصر الحديث. وتأثير كلّ من «وايت ولتمان» و«ت.س. إليوت» بيّن في النقلة الأدبيّة العربيّة باتجاه الحداثة... ولقد ظلّت الثقافة الأدبيّة الوافدة من الغرب حبيسة عقول النخبة؛ لما يمثله جدار اللغة من فاصل موضوعي بين لغة فصحى وأخرى محكيّة، بين طريقة تفكير أدبيّة نخبويّة، وأخرى شعبيّة،

بخاصة أنّ حركة الحداثة الأدبيّة التي دعت إلى رؤية جديدة إلى العالم وإلى لغة جديدة في التعبير، أقامت جدارًا عاليًا بين الأدب والعامّة. ودعوة الشاعر «سلامة موسى» لكي يكون الأدب للشعب، ومحاولة مظفّر النواب لكي يكون شعبيًا مسموعًا من العامّة، لم تخرجا هذا الاتجاه من التمثيل الضيّق إلى تمثيل واسع يغلب على الحياة الأدبيّة العربيّة.

مهما يكن من أمر نخبويّة الثقافة الأدبيّة، فإنَّ سؤالًا مهمًا يطرح نفسه في هذا المجال. هل نستطيع القول إنّ الثقافة العربيّة التي شكّلت طريقة الحياة في المجتمعات العربيّة الحديثة هي وليدة المثاقفة مع الغرب؟

نكون مكابرين إذا لم نقل بذلك. فالمجتمع العربي، ومع بداية القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، والحضور الإفرنجي في الشرق توقَّف عن الإبداع، وعن الإنتاج الثقافي الفاعل. ولم تستطع شخصيّتان ثقافيّتان كبيرتان هما ابن رشد وابن خلدون، مع ما بذلتاه من جهد، أن تعيدا المياه إلى مجاريها الإبداعيّة فكانتا تجليًّا لمحاولة استفاقة أو صرخة أخيرة للثقافة العربيّة في وجه تداعيها المريع. واستمرت هذه الحال، زمن الزنكيّين والأيوبيّين والمماليك والعثمانيّين الّذين لم يغادروا العالم العربي إلا في حدود العام 1914. وإذا لم نكن هنا بصدد تحديد الأسباب التي أدت إلى ذلك التوقّف، فإنّ المهمّ أنّ المجتمع العربيّ لم يكن منتجًا للثقافة طيلة تسعة قرون أو ما يزيد.

يعني أنّ المجتمعات العربيّة لم تكن تمتلك الأدوات المعرفيّة المتراكمة والمتوارثة لمواجهة ما تعرضت له البلاد من غزو غربي مع انتهاء الحرب العالمية الأولى. وفي وضعيّة كهذه لا بدّ من أن يستفيد المتخلّف من المتقدّم غازيًا كان أم مغزوًّا. وتستلزم هذه العمليّة أن يستفيد النخبة العربيّة من الثقافة الغربيّة شيوعيّة كانت أم قوميّة. وممّا يجدر ذكره في هذا المقام أن التّصوّرين الشيوعي والقومي عن إعادة بناء المجتمعات العربيّة كانا تصّورين جدّيين متفائلين في مرحلة من مراحل حضورهما فوق الساحة العربيّة.

ممّا يجدر ذكره في هذا المقام، أنّه قد نما وسط زروع هاتين الثقافتين الأقوى والأوسع انتشارًا ثقافة مضادّة غير عفويّة أو بريئة. نعني بها النزعة الفينيقية في لبنان والفرعونيّة في مصر. ولقد أدّت هذه الثقافة دورًا إيجابيًا من حيث لم تحتسب، أسهمت بصوغ الكثير من الأجوبة حين كانت تطرح أسئلة عن حقيقة القوميّة من جهة، وعن مشروعيّة تحويل الملكيات الخاصة إلى ملكيات عامّة من جهة ثانية. لقد شكّلت هذه الأسئلة بما طرحته وبخلفياتها الاجتماعية والعقدية مدخلًا لغنى الثقافة اليساريّة وقوّتها.

4. يجرّنا الحديث عن التعامل الإيجابي مع حركة المثاقفة إلى الحديث عن الموقف المضادّ لها. ويحضر، بهذا الخصوص، الرأي الحصيف الّذي أطلقه الناقد المصري الراحل «جابر عصفور» عن الثقافة الوطنيّة الّتي دعا إليها بعض المثقّفين، وفي مراحل متعدّدة، مستندين في دعوتهم تلك إلى الموروث العربيّ وحده مبتعدين عن أيّ شكل من أشكال المثاقفة مع الغرب. فقد رأى «جابر عصفور» أنّ ظروف نشأة تلك الثّقافة قد جعلتها «استجابة دفاعيّة، متوترة، عصابيّة، هي ردّ فعل مضادّ للمخاطر المباشرة الّتي كانت تواجهها الأنا القوميّة»[1] فكان أن اتّصفت، جراء ذلك، بالشعور «المراوغ بالدونيّة في حضرة الآخر»[2] . ولقد دفعها هذا الشعور إلى اختزال الآخر «في صفة واحدة»[3] مسقطة السياسي على الثقافي مندفعة إلى ما تتوهّم فيه خصوصيّة تحميها وأصالة تصونها محققة نوعًا آخر من «التراتب القمعي، تعلو فيه الصفات المتخيّلة للأنا على الصفات المتوهّمة للآخر على نحوٍ تنعكس فيه علاقة الأعلى بالأدنى»[4].

1 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، 2009م، ص 47.
2 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، المصدر نفسه، ص 52.
3 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، المصدر نفسه، ص 53.
4 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، المصدر نفسه، ص 54.

ثانيًا: تغيّر المشهد العربي وانقلاب عضويٌ في شكل الثقافة والانتماء

السؤال الذي يطرح نفسه حيال هذه الخصائص المرضيّة التي كشفها «عصفور» عن الثقافة الوطنيّة المستقلّة، هو هل تتعدى هذه الخصائص ما دعا إليه المفكر المصري «حسن حنفي» إلى الناتج الثقافي العربي المترتّب على المثاقفة مع الغرب؟ لا تنسحب هذه الخصائص على معظم تشكيلات الثقافة اليساريّة التي حضرت حقبة طويلة من عقود القرن العشرين في المشرق العربي إلا بحدود ضيّقة جدًا. وحديث «جابر عصفور» عن الأصوليّتين الماركسّية والإسلاميّة وما وصفهما به من «أحاديّة الإدراك، وحرفيّة الفهم... والعناصر المفضية إلى الآليّات الفكرية الملازمة: الجمود... الانغلاق... والاسترابة من كل وافد ومركزية الأنا ومعاداة الآخر»؛ هو حديث يتناول تجربة النشأة الشيوعية السوفياتيّة والتجربة الإسلاميّة الباكستانيّة تحديدًا.

لا نُقدّر أنّه قصد تجربة المثاقفة العربيّة مع ما هو تقدّمي في أوروبا، ويعني ذلك أنّه كان يتحدّث عن اتجاه ثقافي عربي واحد كان يقع على هامش الحياة الثقافية العَائمة بالنهضة اليسياريّة. ونقده ذلك الاتجاه علمي سليم، ودعوته إلى «أن تُخضع الأنا هذا الآخر إلى منطق المساءلة» بدل أن «تتذبذب بين الإعجاب المقلّد في حال التبعيّة، والنّفور السّلبي في مخيّلة التحرر الإيديولوجي»[1] هي دعوة مفيدة منتمية إلى منطق التاريخ الذي يقدم لنا التجربة البشرية مع الثقافة تجربة متنقّلة، وهي في تنقّلها هذا دعوة للمتخلّف أن يفيد مما وصل إليه الآخر بشروط أهمّها اثنان:

أ- أن يقرأ المتخلّف تراثه قراءة نقديّة مبنيّة على آخر ما توصَّلت إليه الحياة العلميَّة المتقدّمة من مناهج في التفكير؛ ليكون على بيّنة من أمره، فيدرك ما بقي مضيئًا من ذلك التراث، ويعرف ما سقط

1 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، ص 52-53.

منه، فلم يعد قادرًا على مجاراة الحياة.

ب- أن يطرح على ثقافة الآخر سلسلة من الأسئلة الجادة التي تعبّر عن حاجات الأنا المعرفيّة مقيمًا معها حوارًا منطلقًا من الاعتراف بها، متسلّحًا، في كل ذلك، بثقة بالنفس مرتكزة على تعامل علمي مع الموروث، جيده ورديئه من ناحية، وعلى عدَّ الذات في طور العبور من منطقة التخلّف إلى منطقة التقدّم من جهة ثانية.

ما يجدر ذكره، في هذا المقام، أنّ الغرب الذي نُثاقفه هو غرب غير حياديّ في موقفه من المجتمع العربي، على الأقل في توجّهات حكوماته غير الأخلاقيّة. فقد أقامت فضلًا عن حركة الاستشراق المنظمة الهادفة إلى امتلاك معرفه بالشرق لامتلاكه، عبر دوائر متخصّصة تضع مجمل حياة الشرقيّين وعلى رأسها الحياة الثّقافية، تحت مجهرها؛ هي تراقب ما يجري وما يحدث دافعةً الحكومات المحلّيّة إلى مواقف معرقلة إلى أي نمو جدّي.

يعني ذلك أنّ المثاقفة قد تمّت خارج سلطة الحكّام. وهي وإن أنشأت لنفسها مؤسَّسات حزبيّة وغير حزبيّة، إلا أنّ هذه المؤسَّسات لم تكن من الرقيّ بما يسمح لها إنشاء الدّوائر البحثيّة الجادّة المتخصّصة الّتي تمكّنها من رسم الخطط السليمة الناجحة، فتكون البديل الجدّي والفاعل للحكومات المحلّيّة في إقامة النهضة والتقدّم. ولا يسوّغ لها هذا القصور أنّها نمت في الظل وتحركت عبر عمليات التهريب، كما لا يمكنها أن تتذرّع بأن حركتها الثقافية حركة مقموعة، بخاصّة أنّ الثقافة الإسلاميّة التي تحركت بعد سقوط تجربة الاتحاد السوفياتي لم تكن مقموعة فحسب، بل كانت مادة للتلاعب من الاستخبارات الغربيّة أيضًا، نشأت بين زروعها زروع سامة قاتلة، وهي مع ذلك استطاعت فعل ما فعلته في جنوب لبنان وفي غزة، مبشّرة بشرق جديد واعد. فهل يجرنا هذا إلى القول إنّ فشل التجربة اليساريّة المشرقيّة عائد إلى سبب ذاتي يخصها، وإلى أنّ هذه الثقافة لم تكن الثقافة المؤهّلة للنهوض بالحياة العامّة؟

إذا كان الأمر كذلك، ما سبب ولادتها ووجودها إذًا؟ وهل يترتَّب على أزمتها أزمة ثقافيّة عامّة؟ ما أبعادها، بخاصّة بعد انحسار الثقافة اليساريّة عن الساحة، وعدم اكتمال ولادة ثقافة جديدة بديلة؟ تستدعي الإجابة عن هذه الأسئلة بحثًا آخر لا يتسع له بحثنا الحالي.

5. هل يعني كلّ ما مرّ أنّ الثقافة العربيّة نتاج السّياسة؟ وإذا صحّ ذلك، هل يُعدّ عيبًا من عيوب الثقافة؟ لم تكن النخبة العربيّة ممسكة بزمام الأمور. فقد وجدت نفسها، وفي لحظة تاريخيّة شديدة القساوة، لا تمتلك سوى الخطوط العريضة من معارف العصر، ففكّرت داخل آليات المتاح من الثقافة. والمتاح لم يكن معارف ناجمة عن أسئلة المجتمع حول إمكانات تطوّره، فلم يكن لديها ثقافة وطنيّة ناجمة عن فهم المشكلات الوطنيّة. وجدت، لذلك، نفسها في مواجهة الغرب الغازي الآتي لنهب الثروات وتحويل المجتمع إلى سوق استهلاكيّة، عبر ثنائية التجزئة وإسرائيل، وكان عليها أن تخوض معركة مصيريّة لا تسمح بأسئلة غير أسئلتها. والسؤال المشروع، داخل هذه المعركة، هو كيف نواجه المشروع الغربي بكل أثقاله وأهواله ومخاطره الإستراتيجيّة؟

حضر الهمّ السياسي، وكان من الطبيعي أن تخترق السياسة الثقافة اختراقًا قويًّا يلحقها بآليات اشتغالها. الأساسي ما يرتبط بمشروع المواجهة، والهامشيّ ما يقع خارج ذلك المشروع، وهو ترف مهما بلغت إنجازاته المعرفيّة المستقلة عن التناقض الأساسي مع الاستعمار. لقد حسم النضال ضدّ الاستعمار الموقف كلّه وأزيح القطريّ والاجتماعي لحساب القوميّ[1] . كما يرى «آدم كوبر» الذي رفض استحضار الثقافة، ممثّلة بالحركات الاجتماعية القائمة على القوميّة، من أجل التحريض على فعل سياسي[2].

1 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، مصدر سابق، ص 35.
2 – جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، المصدر نفسه، ص 13.

لقد كانت محوريّة السياسة في الحياة الثقافيّة، طريقة الحياة، عاملًا إيجابيًّا أوجد ثقافة مرتبطة بالواقع المعيوش، وانتقلت صورة اليهودي في الذهن العربي من صاحب مشروع غير أخلاقي غير إنساني مهزوم في المدينة المنّورة وخيبر إلى صاحب مشروع غير أخلاقي غير إنساني أيضًا، لا يهدّد المعتقدات فحسب، ولكنه يهدّد الوجود أيضًا. وما وصلت إليه المقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين هو نتاج تحوّل تلك الصورة. فالعالم العربي، وفي القرن الحادي والعشرين، ما يزال يعيش مفاعيل ما صنعه الغربيّ به في القرن العشرين. مئة سنة مرّت والنظام العربي الرسمي، ما يزال حجر عثرة أمام طرح أسئلة جادة وفاعلة تطال المجتمع والصّناعة والثّقافة.

المنظّمات الشعبيّة وحدها حاولت أن تتبنّى هذه الأسئلة. وما وصلت إليه المقاومة الإسلاميّة في لبنان من أجوبة علميّة وتقنية وعسكريّة وتربويّة ناجعة هو نتاج طرح أسئلة تتعلّق بإمكانيّة التفوّق على المتفوِّق. كانت طريقة حياة المقاومة الإسلاميّة مبنيّة على العلم الذي كان مصدر تفوّق الإسرائيليّ. عملت فأثبتت أنّه بالإمكان قلب التراتب من ثنائية الآخر الإسرائيلي/ الذات المقاومة إلى ثنائية(الذات المقاومة/ الآخر الإسرائيلي، ومن ورائه الغرب والنظام العربي الرسمي المستسلم. ولعلّ أهم النتائج التي ترتّبت على انقلاب التراتب أنّ الثقافة العربيّة الحديثة، بكلّ أبعادها، لا يمكنها إلّا أن تكون نتاجًا للسياسة. فالمعركة التي تُخاض ستصوغ الذات والمعرفة، وستعيد إنتاج التراث، وستحدّد العلاقة الصحيّة بالآخر كائنًا من كان. والحياة الثقافية التي تمركزت في المرحلة الأوسع من القرن العشرين بآليات اشتغالها هي النسب الممتد إلى هذا الزمان، وإن كانت المرحلة الحالية تطرح أسئلة جديدة تستوجب الإجابة عنها، لكي يستطيع المجتمع الاستمرار في الحياة بأمان وسعادة.

كانت طريقة حياة المقاومة الإسلاميّة مبنيّة على العلم الذي كان مصدر تفوّق الإسرائيليّ.

الاعتقاد أنّ المجتمع نتاج تكويني، فاعله الأساسيّ الثقافة، يستوجب إبراز المراحل الثقافية التي تفيّأ مجتمعنا العربي تحت ظلالها. فقد عرفت الثقافة العربيّة الحديثة مرحلتين أساسيّتين، يفصل بينهما انهيارالاتحاد السوفياتيّ وتداعي ما يمثله على الساحة العالمية تداعيًا كبيرًا.

هبّت ريح الحداثة أدبًا وفلسفة وفعل تحرّر سياسيّ واجتماعيّ في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، فتشكّلت الأحزاب والمنتديات والمنابر الإعلاميّة، سواء أخصّت ما سمّي بالثّقافة التّقدّميّة أم خصَّت الثّقافة اليمينيّة التابعة للنظام الرسمي العربي. وكان التفكير الغالب حداثيًا ملتزمنًا بالقضايا العامّة إلى أن انهار الاتحاد السوفياتي بالضربة القاضية، فوجد المثقّف نفسه يتيمًا فجأة بعد أن تصدّعت مقولات أساسيّة عديدة من المقولات الثقافيّة التي كان يستند إليها. وكان عليه أن يتحوّل، وفي جانب منه، من الاسترشاد الإيجابي بتلك المقولات وبالأدب اليساري العالمي (لوركا، ناظم حكمت، الينـدي)، إلى الاسترشاد السّلبي بالعداء الصارخ الذي تمارسه كلّ من أمريكا وإسرائيل ضدّ شعوب المنطقة. والمبدع، بوصفه ممثّلًا حقيقيًّا للثقافة في أعلى مستوياتها وتجلّياتها سيصدر في كلّ ما يقوله عن التصورات التي رتّبتها تلك الثقافة في ذهنه عن العالم.

كانَ اجتياح العام 1982، على السّاحة اللّبنانيّة وعوضًا من أن يسجّل بداية انكسار عميق في ثقافتنا وأدبنا، كان عاملًا إيجابيًا أنتج المقاومة الإسلاميّة التي أضمرت انتصارات الأعوام 1993، 1996، 2000، 2006.

ما يجدر ذكره في هذا المقام، أنّ اجتياح العام 1982، على السّاحة اللّبنانيّة وعوضًا من أن يسجّل بداية انكسار عميق في ثقافتنا وأدبنا، كان عاملًا إيجابيًا أنتج المقاومة الإسلاميّة التي أضمرت انتصارات الأعوام 1993، 1996، 2000، 2006، واستطاعت وحدها إلى جانب كبار شعرائنا وأدبائنا أن تتنبّأ بتلك الانتصارات قبل حدوثها.

تحدثنا عن اختراق السياسة الثقافة وسوّغناه. فهل يعني ذلك أن الأمر طبيعي؟

الطبيعي أن تكون الثقافة ومناهجها حضنًا يحتضن السياسة، مثلما يحتضن علم الاجتماع، وعلم النفس والتاريخ والفلسفة، وغيرها من الحقول المعرفية المعروفة. وإذا أدّت ظروف المجتمع العربي- كما أسلفنا- إلى تعطّل العقل العربي عن الإبداع، وحضور الاستعمار إلى قلب المعادلة، فهل لنا أن نعيد التراتب إلى نصابه؟

المشروع ممكن، وإن كانت تكاليفه باهظة على صعيد حياة المجتمع السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والاقتصاديّة، فالتّراث موجود وكذلك الثّقافة العربيّة. فالتراث العربي بأبعاده الفكريّة والسياسية والأدبيّة قابل للقراءة العلميّة التي تُبرز المضيء فيه.

الطبيعي أن تكون الثقافة ومناهجها حضنًا يحتضن السياسة، مثلما يحتضن علم الاجتماع، وعلم النفس والتاريخ والفلسفة، وغيرها من الحقول المعرفية المعروفة.

تركت لنا الثقافة الإسلاميّة محصولًا وفيرًا على صعيد الفكر، أهمّه تبنّي العقل العلمي، وذلك في الدعوة إلى العقل من ناحية، وفي التركيز على توجيه العقل نحو الوقائع العنيدة، البيّنات، التي تمثّل علامات سيمائيّة يقينيّة الحقائق التي تقدّمها من ناحية أخرى. وتركت محصولًا شبيهًا، فيما يتعلق بالبعد السياسي. ووصّية الإمام عليّ × لعامله على مصر نموذج شديد الدلالة على المستوى الذي توخّاه الإسلام فيما يتعلق بالعدالة والحرية وتكريم الإنسان وحقوق الحيوان والبيئة.

لا يقلّ النشاط النقديّ العربيّ نجابة عن الفكر والسياسة، سواء أتعلّق بسبقه إلى فهم حقيقة العلامة اللغوية فهمًا علميًا أم تعلّق بتركيزه على لغويّة الأدب في منحى أسلوبي علمي واضح عند عبد القاهر الجرجانيّ. ما نريد الوصول إليه هو أنّ الثقافة العربيّة قادرة على تزويدنا بمفاتيح أساسيّة نواجه بها الثقافة الغربيّة من دون أن نتخلى عن الشخصيّة الثقافيّة العربيّة

المضيّعة في ظلّ تعطّل العقل العربي ما يزيد على الثمانية قرون. فشخصيتنا الثقافيّة، بسماتها الأساسيّة، قائمة في تراثنا إلى حد بعيد. فالعقل العلمي العربي مصحوب بالضوابط الدينيّة الأخلاقيّة التي تمنعه من أن يُحِلَّ دم الآخر أو ماله أو كرامته. والسياسة هي عين الدين، ميزانها تقوى الله التي تمنع سلب النملة حبة شعير، وتمنع الحاكم من ألا يوزّع نظراته بالتساوي على رعيته، وتمنع الأمير من العشاء إذا لم يكن قد تأكّد من أن أحدًا في أقاصي إمارته لا يملك قوت عشائه. ولقد سمقت، في تاريخنا الثقافي، قامات عالية كقامتي أبي تمّام والمتنبي في الشعر، وقامتي ابن المقفع والجاحظ في النثر، وقامتي عبد الجبار الهمداني وعبد القاهر الجرجاني في النقد. إنّ الاعتصام بالمقولات الأساسّية التي اجترحتها الثقافة العربيّة كفيل بأن تكون الشخصيّة الثقافيّة العربيّة الحديثة غير مستلبة في أثناء تثاقفها مع الغرب. وإن ضربت صفحًا عن أيّ قيم أخلاقية في التعامل مع الآخر، إلا أنّ في الثقافة العربيّة ما يسدّ هذه الثغرة، كما رأينا، ويصوّب المسار العلمي للمجتمع. ومهما يكن من أمر، فإنّ المقاومة الإسلاميّة قد حضرت في الجنوب اللّبناني، وأمامها المعادلة الأصعب: «التّفوّق على المتفوّق». ولا يمكن لهذا التّفوّق المطلوب أن يقوم عى العفويّة والارتجال. قوّة الإسرائيلي نتاج ثقافة. والتّغلّب على هذه القوّة يحتاج إلى ثقافة تضاهي الثّقافة الإسرائيليّة/ الصهيونيّة وتتفوّق عليها. والانتصارات الأربعة الّتي أنجزتها المقاومة، في الأعوام 1993م و1996م و2000م و2006م، علامة دالّة شديدة الوضوح. والثّقافة الّتي أنجزت هذه الانتصارات، وإن كانت ذا بعد تقني بجانب أساسي منها، إلّا أنّها نقلت مثقّفنا من التّفكير داخل دائرة الهزيمة الّتي عَمَرَتْ ثقافتنا مع العامين 1984 و1967 إلى التّفكير داخل دائرة الانتصار.

حَضَرت المقاومة الإسلاميّة في الجنوب اللّبناني، وأمامها المعادلة الأصعب: «التّفوّق على المتفوّق».

هذه النّقلة ليست بسيطة، فهي نقلة من نظام علاميّ بكلماته ومصطلحاته واقع تحت عنوان الهزيمة، إلى نظام علاميّ آخر واقع تحت عنوان الانتصار.

ويعني ذلك أن يبدأ المثقّف، أكاتبًا أو قاصًّا أو شاعرًا أو مفكّرًا، مقاومته من داخل اللّغة ليؤسّس على ذلك قراءة العالم المرجعي: (الأرض، الرّجال، المقاومون، عجائز الجنوب، أطفاله، العدوّ، السّلاح، المعارك).

إنَّ الثّقافة الّتي أنجزت هذه الانتصارات، وإن كانت ذا بعد تقني بجانب أساسي منها، إلّا أنّها نقلت مثقّفنا من التّفكير داخل دائرة الهزيمة الّتي عَمَرَتْ ثقافتنا مع العامين 1984 و1967 إلى التّفكير داخل دائرة الانتصار.

خلاصة

مثير للدهشة أن تعرف أنّ الفيلسوف الألماني «فريدريك نيتشه» كان متفائلًا؛ بالنسبة إليه «الشرّ ليس شرطًا ضروريًا من أجل الوصول إلى الخير، بل يحتوي في ذاته على مقدار إضافي من الخير. إذا كنّا قادرين على مقاومة أفظع الآلام، فإنّ ذلك يعزّز مناعتنا من أجل الاستمرار في الوجود، يقوّي قدرتنا على السّعادة، وبهذا نصبح أكثر قوة داخليًا ونفسيًا»[1]. من هذا المنظور يصرّح «نيتشه»، في «أفول الأصنام»: «ما لا يقتلني يجعلني أكثر قوة؛ العصا التي لا تكسر ظهرك تقويّه»[2]. إنّ صور الشرّ كلّه الذي تحمله عنصريّة الفلسفات الغربيّة، والمعاصرة على وجه الخصوص، جعلت شعوب العالم تعاني أفظع الآلام في الحربين العالميتين الأولى والثانية، واستتبعت القتل والدمار بصراع من نوع آخر هو احتكار الوجود للأقوى.

لكن، للمفارقة، أنّ هذا الاحتكار والهيمنة، بقدر ما فيه ذلك الشرّ كلّه، هو مرآة كاشفة لحتمية وجود بشري آخر يقوم على احترام الإنسانيّة جمعاء في حق العيش بسلام، وحقها في فرص التقدّم والتطور لمجتمعاتها يحمي سيادتها وتاريخها وديمومتها.

هائلة هي العصا التي ضربت العالمين العربي والإسلامي، تحديدًا، كونهما أكثر تعرّضًا للمؤامرات التاريخيّة وللاحتلالات المتعاقبة منذ قرون. فهذا العملاق- بجزئيه العربي والإسلامي – لمّا يستعد استفاقته من نومه العميق «الأسطوري» بعد بالمستوى الذي يؤهّله لنهضة شاملة، مع أنّه ما يزال يمتلك، سواء في تراثه وحاضره، من عناصر القوّة الثقافيّة – بمرجعيتها الإسلاميّة- والبشريّة، لو قرّر إخراجها للضوء وتفعليها أداءً وتطويرًا لأحدث في العالم انقلابًا كونيًا لا مثيل له. غير أنّ الإرادات الحقة مغيّبة بفعل

1 – كليمون روسي في حوار مع مجلة Philo Mag، عدد خاص حول نيتشه، 2014م.
2 – فريدريك نيتشه، أفول الأصنام، ترجمة سليمان حسون، دار الكوثر، سوريا، 2009م، ص 169.

طبقة حاكمة من الجهلة النفعيّة الجبانة فلا يمكن بحال من الأحوال حدوث أي تغيرات في هذه الأنظمة، وخصوصًا العربيّة منها.

مع هذا كلّه، الصورة ليست بهذه السوداويّة القاتمة، فحين ترى الضوء قادمًا من بلد إسلامي بعراقته، رفع عنه أغلال التبعيّة للإمبرياليّة، وحقق بفضل ثورته انتصارًا مبهرًا باسم الإسلام الأصيل، ويحكم بجمهوريّة إسلاميّة، وعنيت بها إيران الفارسيّة، تثق تمامًا أنّ تلك العصا لم تكسر الوجود الإسلامي كلّه. من هنا، بدأت بعض الشعوب المستضعفة تتحرّر من استعباد العقل الإمبريالي – بصورته الأميركيّة- وبدأت تصدق أنّ الكثير من «الحقائق» التي ألصقت بها صفة العلميّة والواقعيّة هي مجرد مقولات واهية. إذ إنّ العقل العربي كان وثائقيًا لدرجة تصديقه من دون أي تمحيص الادعاء الإسرائيلي بالقوة والتفوق العسكري، والذي لا يقهر.

المقاومة الإسلاميّة العربيّة في لبنان، هي أوّل من كسر هذا العقل العربي الجاهل والمستسلم – باستثناء «عبد الناصر» طبعًا وهو يمثل حقبة سابقة لها ظروفها يطول الحديث عنها- واستطاعت الإجابة عن سؤال حضاري مصيري وقديم هو: ماذا كان دور الثقافة في نشأة الامبرياليّة والاستعمار منذ القرن التاسع عشر، وماذا كان دور الثقافة كذلك في مقاومة تلك الامبرياليّة وذلك الاستعمار، وأبان معارك التحرير من المغرب العربي إلى الهند إلى فيتنام إلى أفريقيا السوداء؟ هذا السؤال المهم أجاب عنه المفكر الفلسطيني «إدوارد سعيد» بقوله: «إنّ الامبرياليّة استقرت بالثقافة، وامتزجت أركانها بالثقافة المقاومة، وهو صراع بين الأمم الغالبة والأمم المغلوبة- بمفهوم العلاّمة عبدالرحمن بن خلدون - فالأمم الغالبة التي أباحت لنفسها حقّ احتلال أمم مغلوبة وقهرها وإذلالها استعملت الثقافة الإمبرياليّة إمَّا لتسويغ وطغيانها أو لتمرير مخطّطاتها. أمّا الأمم المغلوبة فلم يَحِن تحريرها إلّا بأداة الثقافة التي زرعت الوعي **وأيقظت الحسّ الوطني والديني** لرفض الاستعمار والمطالبة بالاستقلال».

يذكر «إدوارد سعيد» أنّ للإسلام دورًا مؤثرًا في زرع ذلك الوعي والثقافة التي توقظ الحسّ الوطني والديني، غير أنّه لم يفه حقه في الرؤية والتحليل، رغم اعترافه بالتغير الكبير الذي أحدثته الثورة الإسلاميّة في إيران، في كتابه الثقافة والإمبرياليّة، وحتى في كتبه الأخيرة قبل سنوات من وفاته، إنّما ما يشير إلى اعترافه الفعلي بدور أكثر فاعليّة لهذه الثقافة الإسلاميّة – المتمثلة بولاية الفقيه- زيارته إلى الأمين العام سماحة السيد حسن نصرالله بُعيد تحرير جنوب لبنان في العام 2000، لقد كانت رميته للحجر باتجاه فلسطين المحتلّة حلمًا طالما راوده، ومثلت أيضًا اعترافًا صريحًا أنّ الثقافة الإسلاميّة/ الدينيّة وحدها من رسم المعادلات الجديدة في الصراع مع الإمبرياليّة وخَّط مسار الانتصارات القادمة.

المبحث الثاني

ثقافة المقاومة.. جهاد وانتصار

ملخّص

حين نتناول الأدب العربي بالدّراسة يتبادر إلى أذهننا ذلك النشاط الفكريّ الذي يحمل في ذاته مقوّمات القوّة والصمود، إذ ما من أدب على مرّ العصور لا يحمل هذه الصّفة، لأنّه إذا لم يفعل يفقد إحدى أبرز سماته وهي المقاومة والنّضال. يقاوم هذا الأدب عوامل الانكسار والضعف والانحطاط التي تُلِم بنا، في كثير من الأحيان، ويستمدّ مقاومته تلك من فكرة الصراع بين الإنسان والكون لأجل التّطوّر والبقاء، ولأجل أن يبين لنا دوره في حركات التّغيير في المنطقة العربيّة وغيرها من دول العالم، فكيف بحياتنا كإحاطة السِوار في المعصم، ولا يترك شاردة إلا ويسّجلها ويسلط الضوء عليها. هذا إذا كنا سنتناول الأدب منفردًا، فيحيط سيكون الحال إذ ارتبط هذا الأدب بصفة المقاوم. هنا يتأكد لنا الدّور الذي يضطلع به ألا وهو «توليد الصّراع في نفس الإنسان إذا خلت منه، وتجديد حسّ المقاومة إذا كان هذا الحسّ قد خبا مع الأيام» [1]، الأمر الذي يجعله أكثر قوة، وأكثر قدرة على التّحدي والصمود. يأخذ هذا المستوى على عاتقه الحال الوجدانيّة والإنسانيّة، فتطفو إلى الذّاكرة حين يُطرح فعل «المقاومة» على بساط البحث، الحقبة المأساويّة الصّعبة التي عاشتها المنطقة العربيّة في ظل الاحتلال العثمانيّ (1299م – 1923م) حين عاث في المنطقة فسادًا، بخاصّة في أيامه الأخيرة، فرسم حدود الظلم والقسوة، ونال لبنان نصيبه منها.

1 – غالي شكري، أدب المقاومة، دار المعارف بمصر، لا طبعة، لا تاريخ، ص 16.

المقدّمة

يبدو، من خلال مطالعاتنا، أنّ الاستبداد السياسي الذي حلّ بمنطقة جبل عامل زمن الجزار، وما بعده الاحتلال الفرنسيّ في القرن الماضي، لم يمنع العامليين يومًا من طلب العلم، «وإن خبا نوره في بعض الحقبات التي وُصفت بالقاسية، لكنّه كان يعود ناشطًا مزدهرًا»[1]. في حالات الهدوء، بخاصَّة في العهود الأولى لهذا الجبل، وعن هذه الحقبة يقول «علي عبد المنعم شعيب»: «إنّ النّهضة العلميّة هي نهضة الشّهيد الأول محمد الجزينيّ العاملي سنة 1384م، وما يليه، ومرحلة الشهيد الثاني زين الدّين علي بن أحمد الجبعي العاملي وما سبقه، وتأخر عنه في القرن الثاني عشر الهجري» [2]. وقد كان للعلم في جبل عامل مراكز علميّة منذ حقبات بعيدة، وكانت تعدُّ قواعد علميّة.

الاستبداد السياسي الذي حلّ بمنطقة جبل عامل زمن الجزار، وما بعده الاحتلال الفرنسيّ في القرن الماضي، لم يمنع العامليين يومًا من طلب العلم.

عرف جبل عامل، في القرن السّابع انتشارًا واسعًا للعلم في مناطقه كافّة، وعُرِفت لاحقًا جزين ومشغرة وعيناثا، ووصل العلم إلى كلّ قريّة جنوبيّة وإلى كلّ بيت فيه، وأُنشئت المدارس في كل منها. وقد كانت تهتم بالمرحلة الأولى بتدريس العلوم الدّينيّة والفقهيّة والفلسفيّة القديمة، ثمّ أصبحت المدارس في مرحلة لاحقة تدرّس علم الهيئة والحساب والجبر والطبّ والهندسة والعلوم العربيّة، كالنحوّ والصّرف والبيان واللغة» [3]، وغيرها من العلوم. وبعد انتشار الفساد والظلم وبدافع الخوف والضغط، زمن الاحتلال العثمانيّ، هاجر علماء جبل عامل إلى العراق والنجف وإيران، ولم يعودوا إلا بعد عودة الهدوء والأمان إليه، ليكون لهم دورهم في نهضة الحركة

1 – خديجة شهاب، زهرة الحرّ شاعرة جبل عامل، دار البنان، ط 1، 1999م، ص33.
2 – محمد كاظم مكّي، الحركة الفكريّة والأدبية في جبل عامل، دار الأندلس، بيروت ، لبنان، ط1، 1963م، ص 23.
3 – محمد جابر أل صفا، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة، لا طبعة، لا تاريخ، ص 27–28.

الفكرية والثقافيّة فيه. إلا أنّ هذا الازدهار والنشاط لم يدم طويلًا، وعاد القهقرى في عهد «الجزار» الّذي أحدث نكبة علميّة كبيرة، فأمر بنقل الكتب والمخطوطات النادرة والثّمينة التي كنت في مكتبات جبل عامل إلى عكا لحرقها في الأفران «كمكتبة آل خاتون التي لم يبق منها شيء، وكذلك مكتبة آل الصغير وآل الأمين وآل الفضل والحرّ والسبيتي والقبيسي، والزّين،... وغيرهم من بيوتات العلم» [1].

عرف جبل عامل، في القرن السّابع انتشارًا واسعًا للعلم في مناطقه كافّة.

بناء على ما تقدّم، نرى أنّ التاريخ السياسيّ لهذه المنطقة حافل بالحروب والثّورات والفتن بدعم من الاستعمار والدّول المغتصبة، الأمر الّذي انعكس على الوضع الاجتماعيّ، فعانى العامليون في ضوئه الكثير. نضع يدنا في هذا الإطار على الفكر الثقافيّ للعامليين، فنرى رغم الفوضى التي مرّت بها المنطقة أنّ أهلها استطاعوا النهوض بأدبهم وبحياتهم الاجتماعيّة، فقد كان الأدب في جبل عامل منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر هجري (1800م-1900م) في حركة تجديد وتحرّر من التقليد في الفكر والعمل. وتنفتح أمامنا وجوه متنوعة للأدب، فنشاركه النّضال وفي مستويات متعددة منها «حركة النّضال الإنسانيّ»[2] والثقافيّ والفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ والقوميّ والحضاريّ، في هذا السّياق سيعرض البحث مستويين من مستويات النّضال الأدبيّ هما: المستوى الإنسانيّ والمستوى الاجتماعيّ.

1 – السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، مطبعة الإنصاف، بيروت، لبنان، ج1، 1961م، ص 47.
2 – السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، المصدر نفسه، ص 10.

أوّلًا: المستوى الإنسانيّ

يشهد التاريخ الحديث الاحتلال البريطانيّ والإيطالي والألماني والفرنسي للمنطقة نفسها، والذي لم يكن أقلّ قسوة على الأمّة العربيّة من الاحتلال الذي سبقه، فقد عمل على تقسيم المنطقة، ثمَّ تقسيم لبنان إلى دويلات متناحرة من خلال الدّستور الذي تركه، فقسّم السّلطات ما بين المسيحيين والمسلمين وباتت كلّ طائفة تتمسّك بحقوق مواطنيها، بدل أن تتمسّك بحقوق المواطن اللبنانيّ، بصرف النّظر عن الانتماء الدّيني أو السياسيّ أو الطائفي تلك التركة الثقيلة التي تركها لنا. وما نزال نعاني مفاعيلها، حتى اليوم، إذ لم تحاول الطبقة السياسيّة التّغيير في ذلك القانون، بما يحفظ لبنان كدولة مستقلّة بعيدة عن القوانين الجائرة.

بعد ذلك كان اغتصاب فلسطين (1948م)، ومع الأرض المغتصبة يخلق الأديب العامليّ والعربيّ، قصصًا مأخوذة من قلب المعاناة، يضع أمامك حقائق بعيدة من التّنميق والتّزويق، يقدّم المعاناة مضافة إليها الثورة على بعض الواقع المتخاذل عن نصرة الأرض التي تعاني جرّاء احتلالها، وتدنيس ترابها. وليس بعيدًا من هذه الاحتلالات اجتياح العدّو الإسرائيليّ للأراضي اللبنانيّة(1982م) ما أعاده إلى نقطة الصّفر في تاريخه النّضاليّ. وهنا وجد اللبناني العامليّ نفسه أمام الأمر الواقع من جديد، وعليه أن يعود للنّضال ثانية لدحر المحتل الجديد. ورأى أنّ زهر الحريّة لا ينبت إلا بدماء الشّهداء، والتّجربة في ذلك ما تزال ماثلة أمامه. لقد وضعه فعل «المقاومة» أمام المرآة التي تعكس واقعه المرير، حيث سعت المقاومة ضد العدو الإسرائيليّ، إلى أن ترسخ في النّفوس مفاهيم جديدة عن الجهاد في سبيل الأرض والوطن، وتقدم ثقافة تنطلق من الفكر والوجدان بالمفهوم الإسلامي الأصيل، فوجّهت بعد ذلك ضرباتٍ نوعيةً إلى جسم العدو المغتصب، ولقّنته دروسًا لم يعهدها في مواجهاته السّابقة.

تحتل أرض الجنوب في نفوس أبنائها المكانة السّامية، إذ إنّها تحمل خصائص القداسة المتأتية من أماكن قريبة / بعيدة. فهي **أوّلاً**: متجسدة في إيمان إنسانها بالحريّة التي تُحَقق له الكرامة والاستقلال، إذ يعيش فيها سيدًا حرًّا، ومستقرًا، وبانيًّا، ومنتجًا ومبدعًا ومثقفًا، ويقدّم الخير، ويحبّ الجمال، ويعشق الحق. والقداسة ثانيًا: نتبيّنها من الكوامن أو من الموروث الثقافيّ والدّيني لأهل جبل عامل، القداسة هنا تعني الحياة مع الخطر، والذّوبان فيه إلى حدّ التّماهي معه، ومجابهته في كل لحظة من لحظات العمر؛ وهي لا تتحقق في هذا المستوى إلا إذا كانت لدى الإنسان «إرادة قوية في ساحة صامدة» [1]، جاهزة للقضاء على أيّ إحساس بالضعف والجبن.

تحتل أرض الجنوب في نفوس أبنائها المكانة السّامية، إذ إنّها تحمل خصائص القداسة المتأتية من أماكن قريبة / بعيدة.

تسري القداسة من الأرض إلى ساكنها وعاشقها، فيتعلّم منها معاني البساطة والبذل والعطاء، وقد أراد الأديب العاملي أن تمتدّ على طول الأرض العربيّة التي عانت مصيرًا مشتركًا في مرحلة ما... فمن الجزائر وثورة المليون شهيد، مع «جميلة بو حيرد» المرأة التي خطت سطورًا جديدة في المقاومة والدّفاع عن الأرض والكرامة، إلى مصر أمّ العروبة، وأرض جمال عبد الناصر، الزّعيم الذي رفض أن يساوم، أو يهادن في سبيل التحرير والسّيادة، أرض الشّاعر الذي يكتب باللهجة المصرية العاميّة «سيد نجم» في دواوينه الشّعبيّة التي جاءت خير دليل على ذلك، إلى سوريا الأسد الذي عمل على ترسيخ أهمّيّة النّضال في سبيل استعادة الأرض المغتصبة، وعدم التّنازل عن أيّ شبر منّها. وقد «اشتُهر أنّه الرئيس الذي لم يوقع» اتفاقيات الاستسلام والتنازل عن هضبة الجولان المحتلة، مقابل السّلام مع العدو الّذي اغتصب الأرض وانتهك المقدّسات العربيّة إلى العراق... ففلسطين الأرض النّازفة بجروح الحرية ما يقارب ستين عامًا، أرض غسان كنفاني في «عائد إلى حيفا»، «ورجال

1 – حسين جمعة، ثقافة المقاومة إعادة بناء الذّات العربية، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، ط 1، دمشق 2014، ص 85.

في الشّمس» وأرض فدوى طوقان، ومحمود درويش في « أحبها، أو لا أُحبها»، وسميح القاسم... وغيرهم. تبدو قداسة الأرض/ الوطن هنا في كلّ الأعباء التي حملها هذا الجيل في فكره وفعله وتصرّفه، وقد تقدّم الهمّ القوميّ والعربيّ على الهمّ الاجتماعيّ، إنّها قداسة النّضال المستمر منذ عقود مرّت.

تسري القداسة من الأرض إلى ساكنها وعاشقها، فيتعلّم منها معاني البساطة والبذل والعطاء..

يعرف المغتصِب أهميّة الثقافة، وكيف أنّها تشدّ من ساعد المقاومة المسلّحة شدًّا لا حدود له، وهي تحصّنها في درب المواجهة، وتُعلي من شأنها فيروح ليحارب الأدباء والكتّاب كما يحارب المقاومون الشّرفاء. في مقابل ذلك، يسعى الأديب إلى أن يكون ذلك المعلّم الذي يعمل على تنمية الوعيّ السياسيّ والاجتماعّي في أبناء وطنه، يريدهم أقوياء أصحاب السّواعد الصّلبة المؤمنة بالجهاد، التي ستنتج حتمًا جيلًا قادرًا على رفد المقاومة بالسّواعد القويّة، وبالأقلام التي تبني وتشيِّد صروح الكرامة والإباء؛ ما يسهّل عملية انتزاع المغتصب من الأرض.

يعي أهل جبل عامل هذه الحقيقة، وما عادت الخُدَع تنطلي عليهم، وراحوا يتعاملون مع العدو على أساسها، فهم مُقتنعون تمامًا أنّ عليهم تحمّل الكثير، وفي المستويات كافّة، عليهم أن يتحمّلوا القتل، والتّرويع، والتّشرد، الفزع والخوف، في سبيل البقاء في الأرض والتّشبث بها. فإن تركوا أرضهم، فهي ستذكّرهم بالمصير المحتوم الذي وصل إليه الشّعب الفلسطينيّ، حيث إنّهم يعيشون مشردين في أصقاع الأرض، تُهدر حقوقهم وكراماتهم.

يعني التمسك بالأرض بالنسبة إلى أهل جبل عامل استئناف الحياة الطبيعيّة ولو في ظل الخطر، والابتعاد عنها يعني الموت. كما أنّها تعني الولادة من جديد، والمخاض عسير، ويربط الأدباء في هذه الحال بين رحم المرأة ورحم الأرض فيصبح كلاهما رمزًا للحياة. يدخل النصّ السرديّ معهم، ليقدّم

إيحاءً أنّ العدو يسعى إلى هدم الإرادة في الإنسان المحاصر، والذي يعيش تحت سيطرته، على أمل أن يملّ من محاولة البناء، ويتخلّى عن الأرض مكان الإقامة ومستقر العيش.

يعني التمسك بالأرض بالنسبة إلى أهل جبل عامل استئناف الحياة الطبيعيّة ولو في ظل الخطر، والابتعاد عنها يعني الموت.

لقد استطاع النموذج اللبناني أن يحسم الصراع لصالحه، فاستلمت المقاومة دفّة القيادة، وهي التي تحدد اليوم زمن الصراع ومكانه، والأسلوب الذي يجب أن تردّ فيه. فتغيّرت معادلات كثيرة، وأمسك المقاومون بزمام المبادرة، وسار الأدباء على خطاهم فأخذ كلّ فعل في أدبهم المقاوم «يأخذ بقدر ما يعطي، يتشكّل بالفعل الآخر» [1]، بالقدر نفسه الذي يساهم في تشكيل الأفعال الأخرى. إنّ الرواية المقاومة تخطّ وهج الحياة، فتشرق الحرية من جبين مقاوم استشهد ليصحّح مسار التاريخ الذي أنهكه التزوير، ومن ذاكرة جريح لا يزال ينبض جرحه بحبّ التراب وعشقه، ومن امرأة تنهض بأعباء الأرض فتنبعث بالأمل والإشراق على غدٍ واعد بحريّة مطرّزة بخيوط الحياة الجميلة، ومن قلم تلميذ يتدرّج على خطى الجهاد والنور، ومن نضال طالب يتحضّر للوصول إلى ألق الكون المشع.

لقد استطاع النموذج اللبناني أن يحسم الصراع لصالحه، فاستلمت المقاومة دفّة القيادة، وهي التي تحدد اليوم زمن الصراع ومكانه، والأسلوب الذي يجب أن تردّ فيه.

إذًا؛ مع ثورة الأديب نشهدُ انقلابًا جذريًّا في العلاقات على المستوى الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثّقافيّ، إذ يبدع بلغته وأسلوبه، كما يبدع المقاوم ببندقيته. والأديب في هذا السّياقّ «عامل من عمَّال الثورة لكنّه يعمل باللغة» [2] وبالقلم، ويتميّز بطرحه بين أيدينا صورًا عن التّداخل والتَّلاحم مع الأرض. لقد خرج أدباء هذه المرحلة من زمن الهزائم، فراحوا يتكيّفون مع زمن التّحرير والانتصار، وأخذوا يعملون على تشكيل الوجدان الجماعيّ، ما يشير إلى أنّ

1 – حسين جمعة، ثقافة المقاومة إعادة بناء الذّات العربية؛ مصدر سابق، ص90.
2 – أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط 2، 1978م، ص 116.

تحولًا حياتيًا حصل بالتزامن مع التحوّل الأدبي الذي أصبح معه «الأديب قادرًا على أن يجسّد هذا الواقع ويحاكيه بتغيراته أدبيًّا»[1] ما أثمر أعمالًا نابضةً بالإحساس الوطني والقومي.

إنّ الرواية المقاومة تخطّ وهج الحياة، فتشرق الحرية من جبين مقاوم استشهد ليصحّح مسار التاريخ الذي أنهكه التزوير، ومن ذاكرة جريح لا يزال ينبض جرحه بحبّ التراب وعشقه.

يرفض الأحرار من الأدباء أنْ تُغلّ أَيديهم بالسّلاسل، ذلك أنَّهم مجبولون بطبعهم على الحريّة، تلك الحريّة التي تُحسب أنّها منفعة خاصة بهم، تنسحب في ما بعد على منفعة جماعيّة على المستوى الوطني، و«يُعدّ الوعي بمفهوم الحريّة والمقاومة» [2] المدخل الرئيس لكلّ أدب يُعنى ويهتم بقضايا الإنسان الاجتماعيّة، بخاصّة ذلك الذي يسعى إلى الدّفاع عن الذّات «الجمعيّة» في مقابل «الآخر العدوانيّ».

لقد خرج أدباء هذه المرحلة من زمن الهزائم، فراحوا يتكيّفون مع زمن التّحرير والانتصار.

نطأ مع الأدب المقاوم أرضًا بكرًا إذ إن هذا الأدب - باستثناء التّجربة الفلسطينيّة - ما يزال في بداياته يتلمّس طريقه، والأدباء الذي يسبرون غوره قلّة، على الرّغم من أن التّجربة اللبنانيّة، حافلة بقصصِ مقاومة الاحتلال، ومعاناة أهل الأرض جميعهم من دون تمييز بين طفل أو شاب، شيخ أو صبية، أعزل أو يحمل السّلاح في مواجهة الاحتلال. ونحن إذ نعثر على بعض الرّوايات والقصص، إلّا أنّ الميدان ما يزال رحبًا للغوص فيه، ونقل التّجربة كاملة، ما قد يساهم في تغيير الحال الرّاهن، وإعادة تشكيل مجتمع يعرف قيمة الأرض ويؤمن بضرورة «الدّفاع عنها، والتصدّي لعمليّة المصادرة والتّجريف من روح الهوية... واغتصاب الأرض»[3].

1 - عبد المجيد زراقط، مؤتمر أدب المقاومة ومواجهة الحرب الناعمة، الأونيسكو-بيروت، جلسة عُقدت باريخ 2014/05/19م.

2 - عبد العزيز نجم، مدوّنة واحة الأرواح، إطلالة على أدب المقاومة، 2010/04/23م.

3 - جيهان فوزي، أدب المقاومة الفلسطيني ومكانة الأرض في الأدب، موقع المصري اليوم، 2014/5/17.

أيضًا، ما يفسّر نجاح المقاومة اللبنانيّة هو الثقافة المقاومة التي لم تهدأ يومًا، وقد هيأت ثقافة وطنيّة داعمة مستمرّة، ووقفت خلفها لتعيد بعث التجدد فيها. ينعكس هذا العشق في نشاطهم وتعاونهم على إزالة المحتلّ، ليبنوا بعدها مستقبلهم ومستقبل أولادهم كما يحلو لهم، هم أوفياء للأرض وللبشر وللحجر وللشّجر، ولكلّ حبّة تراب. ولأنّهم كذلك لن يجدوا صعوبة في إعادة بناء ما تهدم، وغرس ما قُطع، وبسرعة مذهلة. وتبني الثقافة المقاومة علاقات وثيقة بين أبناء البلد تتنامى لتصل إلى تحضير الجميع للمواجهة، وتزكية اليقظة والوعي والانتباه، يبحثون عن القوّة لأنّهم يكرهون الضعف، وعن الحرّية لأنّهم يُبغضون السّلاسل، ويصلون في إنتاج إيمانهم إلى أن تصبح المواليد عندهم مسماة بأسماء مستوحاة من واقعهم الذي يعيشون.

ما يفسّر نجاح المقاومة اللبنانيّة هو الثقافة المقاومة التي لم تهدأ يومًا، وقد هيأت ثقافة وطنيّة داعمة مستمرّة، ووقفت خلفها لتعيد بعث التجدد فيها.

يُلحظ في معرض مقاربة نتاج بعض الأدباء اللبنانيين الذين يكتبون أدبًا ملتزمًا مقاومًا لكل أشكال العنف، أنَّ إنتاجهم الأدبيّ يركّز على البعد الإنسانيّ، إذ يعالج حالًا إنسانيّة من النّاحية القوميّة أو الاجتماعيّة، وينقلون للقارئ/ المتلقي ما يشاهدونه من حركة الأبطال المناضلين الذين يخوضون الصّراع مع العدو حتى النهاية. ولابدّ للأدب المقاوم من أن يركّز أكثر ما يركز على البعد الإنسانيّ، من دون أن يُغفل البعدين: القومي، والاجتماعي، فهو يعبّر عن إنسانيّة، تجعلك تتعاطف معها، فتصبح الأقرب إلى نبض قلبك، وهنا ينقل الأديب هذا الإحساس بالتّعاطف إلى العالم أجمعه، وإن اختلفت لغة التخاطب بينه، فالإحساس بالوجع لا يحتاج إلى لغة أكثر من لغة العيون والمشاهدة، ولغة الإحساس بالوجع الإنسانيّ المتنقل في أرجاء المعمورة. تتأرجح حكاية المقاومة بين مفاهيم عديدة، لكنّها في النّهاية تشتبك في خيط واحد يصبّ في صالح الجهاد والتّحرير، ورفع

العبء عن صدر الأمّة، وإعادة النّفس إلى شراييها، وضخّ الدّم في عروقها. ويتناوب أبطال الحكاية السّردية، وتأدية أدوار البطولة حتى يكتمل المشهد، وتتضّح الصورة للمُشَاهِد، فيُعجب بما يرى وينبهر، وقد يصل إلى حدّ أنه يتمنى أن يكون أحد أبطال القصّة أو الرّواية.

إنّه دور الأدب المقاوم، إذ تصبح معه المقاومة نظرة إلى الحياة، فيشارك الأديب أو الشّاعر في حركة النّضال التي قامت، وقاد رايتها أبطال مقاومون، لم يبخلوا يومًا بالرّوح فداء للأرض.

نشير في هذا السّياق إلى أنواع من الأدب المقاوم؛ فهناك الأدب الذي يقاوم «**قبل**» حدوث المحنة، وهو الذي «يرتفع الى مستوى النّبوءة» [1]، ويحضرنا في هذا السّياق «طواحين بيروت» لتوفيق يوسف عواد وقد صدرت هذه الرّاوية للمرة الأولى العام 1972م، وقد استشرف الرّوائي فيها حدوث الحرب التي استوطنت لبنان ما يزيد عن الخمسة عشر عامًا، أيّ قبل انطلاقتها بحوالي ثلاث سنوات، ويستشرف الروائي العربي» عبد الرحمن منيف في روايته «مدن الملح» نضوب الثروة النّفطيّة في الخليج، والتي يصارع على استحواذها العالم أجمع.

هناك الأدب الذي يقاوم في «**أثناء**» المعركة وبعد الهزيمة، ولا ننسى الأديب المصريّ الرّاحل» نجيب محفوظ» إذ اختلف نتاجه الأدبيّ ما قبل الثورة، عن نتاجه ما بعد الهزيمة والنّكسة. ففي المرحلة الأولى أدان الوضع الاجتماعّي القائم، ودعا إلى ضرورة أن ينكسر المحتل الإنكليزيّ في رواية «زقاق المدق»، وفي المرحلة الثانية أشار إلى بواطن الفساد، و «سجّل جرائم الإقطاع والاستعمار والرأسماليّة» [2] في رواية «ثرثرة فوق النيل». أمّا الأدب الذي يؤرخ للأزمة بعد انتهائها، سواء أكان ذلك بوقت طويل أو قصير، قد لا يبقى منه الكثير في الذّاكرة، أو في أرشيف الصّحافة، فيُكتب ليؤرخ

1 – غالي شكري، أدب المقاومة، مصدر سابق، ص 16.
2 – غالي شكري، أدب المقاومة،المصدر نفسه، ص 13.

لحقبة معينة، يخرج عندها إلى العامة من دون روح، ويخفّ وهج تأثيره عليهم .

يلتزم هذا الأدب بقضايا الشّعب الإنسانيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والقوميّة والثقافيّة، سواء أكان مؤمنًا أو غير مؤمن بكتاب سماويّ، فيغرس مداميك متينة في صروح الأوطان المقاومة، ذلك أنّ ليس فيه «ما يناقض الخلق والتفرّد... وإنّما هو وعيّ واقتناع واختيار حرّ [1]»، يذهب فيه الملتزم إلى هدف يحدّده لنفسه، يستطيع من خلاله أن يكشف الواقع، مع محاولة جديّة في تغييره، أو قلّ هو سعي حثيث إلى تغيير الخلل فيه. ويبدو جليًّا هنا أنّ الالتزام يتعارض في الذّات البشرية، مع مبدأ الكسل واللامبالاة والإهمال وعدم المشاركة في القضايا العامة، الفكريّة والوطنيّة؛ ومنه ينطلق الشّاعر إلى التعبير عمّا يعانيه المجتمع، ويجد نفسه في ما يجري على أرض الواقع، فيضع نفسه أمام مصيره ومسؤوليته.

يفسح «الالتزام» في المساحة أمام «الإيمان» وهو البطل الدّاعم والمساند له، إذ إنّه عند بعض الشّعراء، ينطلق من الإيمان بنصّ دينيّ يدعو إلى الجهاد، والمقاومة، وإلى طرد العدو عن أرض الوطن، وعدم الاستسلام له. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده....﴾ [2] . وقد يُسطَّر في نصّ قانوني، جاهد في أن يكون رقيبًا أمينًا على تنفيذه، إذ تنصّ المادة العاشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على «استنكار الاستعمار المصحوب بالعنف والاحتقار والظلم السياسيّ والاقتصاديّ». وسواء أكان الإيمان صادرًا من منشأ دينيّ أو حقوقيّ، فإنّه يخدم حرّية الأوطان، ويدعو المؤمنين بها إلى ضرورة التزام تطبيقها من أجل خدمة الإنسان المحروم والإنسانيّة المضطهدة.

يتمظهر على مسرح الأحداث «العشق» الذي ينبثق من قلبٍ يعشق الحياة الحرّة، ويمجّد الكرامة، فيتّخذ من الثورة عشقًا يشعل جنباته ومشعلًا يهديه

1 – غالي شكري، أدب المقاومة، مصدر سابق، ص 10.
2 – سورة الحج، الآية 78.

إلى غايته المنشودة، وهي تحرير الإنسان من نير العبودية. إذ يرى أنّ «الثورة هي المناخ الأكمل والوسيلة الأكثر جذرية لتحقيق التحرّر [1]»، ما يشير إلى أنّ مصائب الشّعوب والأمم لا تتحقق دفعة واحدة، ولا تقرّها معركة واحدة، إنّما هي مرحلة مستمرة من النّضال تبني نفوسًا، وتعشق الحرية والحياة، وتهدم تاريخًا يغرق في الظلمة والسّوداويّة.

تمّد هذه المرحلة النّفوس العطشى بالطاقة والإبداع، إذ تبقى نابضة متلألئة، حين تعاني الأوطان الانتكاسات السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الثقافيّة، فتبقى حيّة حين يكون الوطن منسحقًا مهزومًا مقموعًا وحين يكون مستعمرًا، ويصبح القارىء المقاوم أو المجاهد يحسّ آلام الأوطان المعذّبة في سائر الكون، والشّعوب المقهورة والتي تعاني الملمات والمصائب نفسها. إذ يشعر الإنسان بالإنسان الذي يصارع في الحياة، وهكذا تتكامل عناصر المسرح الحكائيّ، فتؤلف لوحةً عظيمة في مستوى بناء الشّعوب وتأصيل القيم، في حجم معركةٍ تُؤسّس لحقبة زمنيّة مغايرة للتي سبقت، حقبة زاهية مشرقة قادت المقاومة فيها المسير إلى باب الحياة.

1 – أدونيس، زمن الشعر، مصدر سابق، ص 314.

ثانيًا: المستوى الاجتماعيّ

يسعى الأدب المقاوم، في هذا السّياق، إلى تغيير جذري في البنى الاجتماعيّة، إذ «تُعمَّم المقاومة فتصبح رؤيا شاملة للحياة»[1]، تتجسَّد في مقاومة الغزو الخارجيّ لاحتلال الأرض. وقد أثبتت الأيام أنّها قانون أزليّ، «ونهج بديل في تصوّر التاريخ البشري لمقاومة الظلم [2] بكل أشكاله وألوانه». سارت المقاومة بالقلم والأدب، جنبًا إلى جنب مع المقاومة العسكريّة التي «كانت الوجه الذي يدفع الثمن الأغلى على أرض الواقع» [3].

يسعى الأدب المقاوم، في هذا السّياق، إلى تغيير جذري في البنى الاجتماعيّة، إذ «تُعمَّم المقاومة فتصبح رؤيا شاملة للحياة».

دفعت المرأة الأديبة المقاوِمة بنفسها إلى أن تكون فاعلًا مؤثرًا في غير اتجاه نعثر على تفاصيله في ثنايا قصصها، وبيّنت لنا أهميّة التّربية المقاومة وضرورتها؛ «إذ عُدّت واجبًا مشروعًا، ولا مناص منه من أجل الدّفاع عن الذّات والوطن والانتماء» [4]، هذا الحرص النّابع من وعيها للموقف على حقيقته، وقد جعل المُغْتَصِبُ الأرضَ تئن تحت ضرباته، وقد عايشت والناشئة جزءًا من هذا الاحتلال، وعاينوه عن كثب، وشاهدوا بأُمّ العين فعل ضربات المقاومة العنيفة، وقد أغنتها وأدباء المنطقة فكريًّا وعقديًّا، وأعطتهم حافزًا للانضمام إليها والدّفاع عن الأرض.

سارت المقاومة بالقلم والأدب، جنبًا إلى جنب مع المقاومة العسكريّة التي «كانت الوجه الذي يدفع الثمن الأغلى على أرض الواقع».

إنّ الدفاع عن الأرض والإنسان والتّمرد على سلطة الظالم والدّعوة إلى عصيانه وعدم النّزول عند رغباته، كلّها جوانب سياسية منشأها التّراث

1 – غالي شكري، أدب المقاومة، مصدر سابق، ص 385.
2 – فايز رشيد، ثقافة المقاومة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م، ص 98.
3 – علي مهدي زيتون، الشعر كتاب الثقافة، دار العودة، بيروت، ط1، 2013م، ص 87.
4 – حسين جمعة، إعادة بناء الذّات العربية، مصدر سابق، ص 199.

الإسلاميّ، ويرى الأدباء والشّعراء أنّها دعائم أساسيّة في الدّعوة الإسلاميّة لأنّها «دفاع عن الدّين، والشّهادة في سبيلها شهادة من أجله» [1] . بالاستناد إلى ذلك، يمكننا أن نقسّم المواجهة إلى ثلاث محطات زمنيّة، تتشابك عند نقطة واحدة حتميّة هي النّصر للمظلوم والانكسار للظالم.

يستمد المقاوم ثقته الكبرى بالحريّة والتحرّر والانتصار من المواجهة بالتراث، ذلك أنّ التاريخ الإسلاميّ يشهد على الكثير من التّراجع العربيّ، والتّخلف الاجتماعيّ الأُممّي والغزو الخارجيّ والاحتلال الظالم. لكن في المقابل، كانت هناك مراحل صعود ونهضة جماهيريّة انذتهت باستعادة الأرض، والحياة والكرامة ومع المواجهة بالحاضر، فإنّ معظم الشّعوب العربية في المرحلة الرّاهنة تشعر باليأس، وهي تعيش حالاً من التقوقع، والبحث عن لقمة الحياة ومسكن الحرية وثوب العافية.

يستمد المقاوم ثقته الكبرى بالحريّة والتحرّر والانتصار من المواجهة بالتراث.

ما تزال هذه الشّعوب حبيسة الصدمة على إثر الثروة النفطية التي دهمت المنطقة على حين غفلة، وتأكدت مع الأيام أنّ أمواله لم توظف في الأقاليم المناسبة، لا بل أجبرت الحكومات العربيّة شعوبها التي ناضلت وقاومت في حقبة سابقة على الرّكون إلى زاوية العبوديّة والجهل والأميّة، وعلى ممارسة أفعالٍ لم تتصوَّر يومًا أنّها ستصبح في صلب حياتها. وتحضيرًا للمواجهة في المستقبل، يجب أن يتأمّن لشعوب المنطقة القيادة العربيّة الحكيمة التي تعرف كيف توظف الطّاقات في معارك قوميّة عربيّة إسلاميّة ناجحة، تزيل عن كاهلها كابوس العبوديّة، عليها أن تخرج من جلبابها الذي صُنع لها، ذلك أنّها ما تزال إلى الآن تردّد صدى قادةٍ كانوا خير ناصرٍ للشعوب المقهورة والمظلومة.

يجد الشعراء مكانةً لهم في النّضال فتخفق أنفاسهم، ويتركون للقارئ الوقت الكافي ليستلذّ بطعم ما كتبوا، ويجعلونه يستوطن شعرهم، لا

1 – مسعود ضاهر، الثقافة المقاومة دراسة في المنهج، مجلة الآداب، العددين 9 و10، 1992م.

يبارحونه ويطلبونه دائمًا حين يكونون في استراحة المحارب، وفي أيّ وقتٍ آخر. تشارك الكلمة/ السّلاح، ويسيران معًا في طريق الجهاد؛ إذ يترك الشعراء شيئًا من ذاوتهم في ثنايا أشعارهم. ومع الأدب المقاوم إذًا، علينا أن نخلق عالمًا متقدّمًا، عبر تشجيع النّاس على مواكبته، وتربيتهم على الافتخار بأدبائهم وشعرائهم المقاومين الذين يسعون إلى نيل الحرّية الفكرية التي لا تقل أهمية عن الحرية الاجتماعيّة والسياسيّة، غير عابئين بهذه الحياة إلا بالقضية الأسمى وهي الأرض وحريتها.

لا بّد للشعر المقاوم، من أن يركّز أكثر على الأبعاد المتعدّدة منها البعد الإنسانيّ والاجتماعّي، لأنّه يعالج اجتماعيّة تجعلك تتعاطف معها، فتصبح الأقرب إلى نبض قلبك.

يعرّج هنا البحث على المراحل التي مرّت بها الحداثة الشّعريّة العربية، آية ذلك أن الشّعراء في هذه الحقبة، توزعت أشعارهم ما بين شعر موزون مقفى، وشعر عاميّ (الزجل). وإذا خرجنا من التعريف التقليدي للموزون المقفى، فإنّ مجاله «هو الشّعور؛ سواء أثار الشّاعر هذا الشّعور في تجربة ذاتية محضة كشف فيها جانب من جوانب النّفس، أو نفذ من خلال تجربته الذّاتيّة إلى مسائل الكون [1]». ويمكن من خلاله أن يطرح أمام المتلقي ثنايا أحاسيسه ومشاعره.

لا بدّ للشعر المقاوم، من أن يركّز أكثر على الأبعاد المتعدّدة منها البعد الإنسانيّ والاجتماعّي، لأنّه يعالج اجتماعيّة تجعلك تتعاطف معها، فتصبح الأقرب إلى نبض قلبك.

مع بدء التغيرات التي طرأت على مجمل حياتنا السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، برز شعراء يدعون إلى الخروج على كلّ ما هو قديم ومألوف عند من سبقهم، وقد رأوا في الشّعر الحديث من حيث الشّكل، أنّه نسق جديد عليهم أن يحاكوه، «بعد أن أصابهم الملل والسّأم من النّظام التّقليدي

1 – محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، ودار العودة، بيروت، ط 1، 1973م، ص 376 .

للشّعر العربيّ [1] »، حاولوا تبديل الثوب القديم للشّعر، إلا أنّهم لم يحرّروه كليًّا من نظام الوزن والقافية. ذلك أنّ الكثير منهم لا يزال «يراعي رويًّا معينًا، ولا يزال يخضع للإيقاع المنظم [2] »، إذ لم يستقر دعاة التّجديد على حال، فمنهم من يلتزم القوافي أو قلّ على الأقل «ينوّع فيها، ومنهم من يجعل شعره مرسلًا رغبةً منه في مزيد من الحرية والانطلاق [3]».

يُستنتج ممّا تقدم، أنّ الشّعر تعبير عمّا يدور في خلد الشّاعر، إذ يريد منه الإبداع والخلق والتأمل، إنّه «الخلق الأدبيّ الموقّع للشيء الجميل، ومردّه إلى الشّعور والذّوق والفكر [4] »، ما يؤكد فعلًا أنّ الشّعر العربيّ الحديث أدّى إلى «خلق متغيّرات عدّة، متغيّرات لها أذواقها، في توليد رؤى مختلفة جديدة [5]». يرى الشاعر والناقد أدونيس (1930) أنّ هذه التغييرات تتضمن «تعبيرًا مغايرًا، وهي لذلك تخلق القارىء المغاير [6]»، فيثور عندها إذ تهتز في ذاته القيم الجماليّة التي ورثها، فرفضها، وأصبح أكثر استعدادًا لتقبّل ما هو جديد، وبشكل دائم.

مع الأيام، اختلف مفهوم الشّعر، وانقسم الشّعراء بين مؤيد للشّكل ومؤيد للمضمون. إلاّ أنّ قيمة الشّعر لا تكمن في ما يتضمنه، «وإن طريقة أو كيفيّة القول أكثر أهميّة من الشّيء المقول، وأنّ شعريّة القصيدة، هي في بنيتها لا في وظيفتها [7] ». وهذا ما يبيّن أنَّ لغة الشّعر قد احتفظت بمقومات إيقاعيّة وفنيّة، يعود الفضل فيها إلى الشّعراء الأفذاذ، وقد تركت فيهم التّجربة الشّعرية، وصَمَتَها العميقة.

1 – إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، ط 4، 1972م، ص 341– 342.
2 – إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شباط 1978م، ص .27
3 – إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المصدر نفسه، ص 353.
4 – محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، لا طبعة، لا تاريخ، ص 380.
5 – يمنى العيد، في القول الشعري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1987م، ص 21.
6 – أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر، بيروت، ط 5، 1986م، ص 74.
7 – أدونيس، زمن الشعر، المصدر نفسه، ص 17.

تتابع الثورة طريقها، ولا تقف عند محطة أو مُنعطف، وهي التي تحتاج مع الأيام إلى وعيّ النّاس بها، ومن ثمّ التمسك بمقوّماتها وممارستها. وهنا يظهر دور الشّعر الذي يُكتب في لحظات اندلاعها وفي ذروتها، إذ يمكنه أن يكون أكثر فاعليّة، وأكثر تموضعًا في قلوبنا وعقولنا، فيبقى لأجيالنا تلك الوثيقة الخالدة التي تؤرّخ لحقبة النّصر، وتسجّل لحظات الصّراع بين الظالم والمظلوم، بين المستعبِد والمستعبَد.

بعد هذه العجالة في عالم الشّعر، يتبادر إلى الذّهن مجموعة من الأسئلة سيحاول البحث الإجابة عنها، منها: هل استطاعت المقاومة الجنوبيّة أن تغيّر المواقع الفكريّة؟ هل نجح الشّعراء المقاومون في رفد المقاومة المسلّحة بالكلمة القويّة المؤثرة الفاعلة؟ وهل كان للشّعر الموزون المقفى المكانة الأسمى والدّور الأكثر فاعليّة؟ وهل سار الشّعر العامي معه جنبًا إلى جنب في فعل الثّورة؟ بالإضافة إلى معالجة أهم الإشكاليّات الاجتماعيّة والوطنيّة والثّقافيّة التي تنجم جراء التّمسك بالثّوابت الوطنيّة، والمسلّمات المتعلقة بالمقاومة والشّعر المقاوم. إنّ العلاقة على ما يبدو، بين ثورة الكلمات والثّورة المسلّحة وثيقة جدًا، فالشّاعر يستطيع من خلال كلماته أن يخلق في ذواتنا ثورة معادلة لتلك التي تخلقها السّيوف والبنادق في ساحات القتال والوغى. فهذا بعض ما قدمه لنا الشّعر الموزون، إذ يضيق البحث عن الإسهاب فيه، وأمّا الزجل، فالحكاية معه تختلف، فهو ليس شعرًا مستحدثًا طارئًا في الشّعر العربيّ، وإنّما مهّدت له حقبة الحداثة التي شهدها العصر الأندلسي، وقد كثرت مجالس الطرب واللهو، وتفتحت القرائح عن روائع خلّدها تاريخ الشّعر العربيّ.

بدأ العرب في تلك الحقبة بتنويع قوافيهم وتجديد أوزانهم، وراحوا يستخدمون المفردات العاميّة في قصائدهم الفصحى، ولم يجدوا حرجًا في ذلك، وقد استحسنوا الأمر. فووجدوا أنّها تخدم الإيقاع الموسيقى للقصيدة. فنظموا المزدوجات، والرباعيات... والموشحات، و «الكان كان» وغيرها الكثير، وهم في كلّ ذلك لم يحيدوا عن وحدة البيت والشطر، وظل للإيقاع وما يتصل به من وحدة القافية السلطان الأعلى.

بناء على ما تقدّم، فإنّ الزّجل اللبنانيّ يعود إلى حقبة تزيد على ستمئة عام، إلاّ أنّه لم يزدهر، ولم ينشط لأنّ معظم النّاظمين فيه هم من رجال «الإكليروس». إذ راحوا يتكلّفون في نظمه، وأدخلوا عليه زخارف لفظيّة في أوزان مضطربة، وفي قوافٍ لا تآلف، ولا انسجام، ولا ترابط بينها، زد على ذلك، ركاكة الأسلوب والأخذ عن الأقدمين، والتّقليد الأعمى لهم، في المزج بين العاميّة والفصحى.

بقي الحال على ما هو عليه مع الزّجل، حتى مطلع القرن العشرين، إذ إنّه في العقود الخمسة الأولى، ومع انتشار المدارس والمطبوعات ووسائل الإعلام المرئي والمسموع، تطور الزّجل اللبناني كثيرًا، وشهد مرحلة من الازدهار لا مثيل لها. بعد الاستقلال، تابع ازدهاره، وانتشر انتشارًا واسعًا وقد تألفت الفرق الزجليّة، وأُنشئت المجلات والجرائد التي تُعنى به. كما بدأت تظهر دواوين للشّعراء بالمئات، وتُقام الحفلات الزّجليّة المتنقلة، وحفلت بأسماء عدد لا يستهان به ممن قدّموا للشّعر العامي، والأزجال الرّاقيّة التي تسعد الآذان بسماعها، «وارتقى الزجل إرتقاء ظاهرًا... وانتظمت أوزانه، وتعبّدت طرقه، وكثر ناظموه ومتذوقوه»[1]. ولعل أكثر ما ساعد في انتشاره، أنّه يُنظَم بلغة العامة، ولهجة كلامهم، ولا يراعي الشّاعر فيه قواعد الإعراب، ولا الصِّيغ الصحيحة للكلمات، أضف إلى ذلك، أنّه الأقرب إلى فكر العّامة من النّاس، وينطق بلسان حالهم في التّعبير عن مشاكلهم وهمومهم اليوميّة.

إنّ الواقع الملتهب بالصّراعات الذي تعيشه المنطقة العربية عمومًا، بخاصّة لبنان، يؤكدّ أنّ أدب المقاومة لا يزال ينبض، ويمكن رصد عدد غير قليل من الشّعراء اللبنانيين الذين يُحلِّقون في فضاء الشّعر المقاوم، ومفرداته التي تنبض بالحياة، وهي تعبّر بصدق عن مشاعر صاحبها في ما يخصّ علاقته بوطنه.

1 – أنطوان عكاري، الأشعار الشّعبية اللبنانيّة دراسة بعض نماذجها الحلوة، جروس بروس، طرابلس، لبنان، 2005م، ص 6.

تنشط حركة شعرية لبنانيّة في مقاومة المحتل والغاصب، إذ تطالع القارئ كلّ يوم العديد من القصائد التي يكتبها شعراء، أضف إليها القصص والروايات. وكلّها تسعى إلى تغيير وجه الصّراع، وهي في ذلك لا تريد أن تثأر من الإنسان بذاته، إنما من تخاذله في المواقف الصعبة والحرجة، تريد أن تنتقم من الاستعمار العالميّ الذي يحيط بالعالم أجمع. وقد أحسّت أنّه انغرس، منذ حقبة غير قليلة، في الناس فكريًّا ووجدانيًّا، واستعمرهم. في ضوء هذا الحديث، نرى أنّ الشعراء اللبنانيين لا يفصلون بين العروبة والإسلام،

وعدوهما متلازمين، متكاملين، والأمر عند غير المسلمين منهم، تخطّى في أن يكون عقيدة دينيّة، إلى أنّه قيمة أساسيّة في الجهاد ضدّ المحتل، وما تضمّنه من قيم روحيّة وفكريّة واجتماعيّة وإنسانيّة.

إنّ الواقع الملتهب بالصّراعات الذي تعيشه المنطقة العربية عمومًا، بخاصّة لبنان، يؤكدّ أنّ أدب المقاومة لا يزال ينبض.

انشق فجر النّصر، في العام 2000م، وانسحب العدو الإسرائيليّ من معظم الأراضيّ اللبنانيّة التي احتلها، وذلك بعد صراع مرير ومُضنٍ. تتنوع روافد المقاومة وتتعدد، وتسلك طرقًا وعرة حينًا، ومستحيلة حينًا آخر، بهدف بلوغ ما تصبو إليه، مُستخدمة لأجل ذلك البندقيّة من جهة، والقلم من جهة أخرى. فالبندقيّة تقتل من أجل أن تحمي وطنًا وأمّة، والأقلام تسطّر قصائد البطولة والشّهامة، لتغذي فكرًا يتخذ من الثقافة المقاومة منحى له فتكون سندًا للبندقية.

تريد المقاومة -الأنموذج اللبناني على وجه التحديد- أن تنتزع اعترافًا كونيًّا، في أن لا سبيل إلى النّهوض من مستنقع العبوديّة إلّا بالتّمرد على المحتل، وقضّ مضجعه، وهي تعمل على تجريد أفكار بعض النّاس البالية، من الأوهام المسيطرة التي لا ترى فائدة من العمل المقاوم أمام جحافل العدو، وأنّ الضعيف لا يمكنه أن يقف أبدًا في وجه القويّ، وأنّ التحرير يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد.

لا سبيل إلى النّهوض من مستنقع العبوديّة إلّا بالتّمرد على المحتل، وقضّ مضجعه.

خلاصة

يتبين مما تقدم، أنّه مع أدب المقاومة، يطغى الجانب الإنسانيّ على أدبهم، إذ يعثر القارئ على موجة من الحزن والشّجن، المنبثق من انسحاق الشّعوب، وامتهان الكرامة العربيّة. وأنّهم استطاعوا أن يشدّوا أواصر الإنسانيّة ومعاناتها بعضها إلى بعض. إنّه الأدب النّابع من قلب الأديب ووجدانه، إذ يحمل في ثناياه وشائج الصدق والأصالة والحرارة والاندفاع. فهو صادر من عمق الحدث ومن قلب المعركة، ما يشير إلى أنّه يصوغ تجربة الثورة الحية الباقية المتجذرة التي ستجدَّد عبر العصور.

كما أنّ شعراء الزجل، ارتقوا بلغتهم الشّعرية، لتصل إلى روح الشّعر، وقد ساروا مع الحداثة الشّعرية على المستويات كافة، مستوى التّعبير والشّكل والموسيقى، وحتى في إطار الرؤية الشّعرية أيضًا، إذ إنّ بعضهم نظم على بحور الشّعر، كالرجز مثلًا وبقافية واحدة، للأشطر الشّعرية. ولم ينحصر النّفس المقاوم في الشّعراء الذين ينظمون باللغة الفصيحة، إذ يرى البعض أنّهم قد يتفوّقون على شعراء العامية وبالتحديد على شعراء الزجل منهم. وما ظهر أنّ الزجل، سار جنبًا إلى جنب مع الشعر الفصيح في التعبير عن ويلات الأمّة وقضاياها المصيرية.

يمكن القول: إنّه مع تجربة التحرير التي حصلت في لبنان عام 2000م أصبح المستحيل ممكنًا، ذلك أنّ الفكر الضعيف الذي اقتنع لحقبة بعجزه وضعفه، يستطيع الآن أن يتكئ على تجربة متميزة، تمدّه بكل مقومات النجاح، والوصول إلى النصر حتمًا. إنّه النّصر الذي يؤسّس لمرحلة من التّغيير الجذريّ، وهو ينادي أعمق أعماق الوجدان البشريّ العام، إنّه يمثل أرفع مستويات الالتحام، بين النضال القوميّ والصّراع الاجتماعيّ.

أصبح المستحيل ممكنًا مع تجربة التحرير التي حصلت في لبنان عام 2000م، ذلك أنّ الفكر الضعيف الذي اقتنع لحقبة بعجزه وضعفه، يستطيع الآن أن يتكئ على تجربة متميزة، تمدّه بكل مقومات النجاح،

المبحث الثالث

«حسّان» المسيّرة المسيرة؛ مقاومة لا تهدأ

ملخّص

أثار حزب الله، في العقدين الأخيرين، الخاصّة بعد اندحار العدو الإسرائيلي من جنوب لبنان (2000م) وهزيمته في حرب تموز العام 2006م، الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام، سواء عن مذهبه الديني ودوره في لبنان وسوريا واليمن أو عن شعاراته، ليأتي التساؤل الأكبر عن تأريخ وجوده في هذه المنطقة. وذلك في إطار حملة إعلاميّة مسعورة للتشكيك بالانتماء الوطني لمجاهدي المقاومة الإسلاميّة وسلخها عن تاريخها العريق الضارب في القدم. يأتي هذا البحث المصغّر ليحاول الإضاءة، ولو في عجالة عن تأريخ الشّيعة في لبنان، ودورهم المقاوم الدائم الذي لم ينتهِ يومًا في سبيل البقاء في هذه الأرض، وفي سبيل المحافظة على الهويّة والانتماء للأجيال القادمة.

المقدّمة

دخلت المسيّرة «حسّان» إلى أراضي فلسطين المحتلّة بعمق سبعين كيلومترًا، وكان سبق ذلك إعلان المقاومة إضافة قدرة جديدة مهمة إلى قدراتها الاستراتيجيّة، وهي تحويل الصواريخ إلى صواريخ دقيقة. هي نقلة نوعيّة ممّا لا شّك فيه، ولكنّه تراكم خبرات وتجربة طوال عقود من الزمن في المقاومة الإسلاميّة، وهو أيضًا تراكم لتجربة ثوريّة وجهاديّة وتحويل التهديد إلى فرص يعود إلى مئات السنين، في هذه البقعة التي انطلقت منها المسيّرة المحلّية الصنع، وعادت إليها سالمة، وهي بلاد **جبل عامل**. فلهذه المقاومة جذور تاريخيّة، ولهذا الجبل حكايات وأسرار ما يزال العدو يحار بها، كما حار في أمر المسيّرة. «فمن حارَبنا.. حارَ بنا».

أوّلًا: لمحة تاريخيّة

اكتسبت المقاومة، في بلاد جبل عامل، أهميّتها التاريخيّة من خلال نضالها الدائم، فالمقاومة الإسلاميّة في لبنان لم تكن أول مقاومة تنشأ في جبل عامل وبلاد الشام أو أوّل مقاومة شيعيّة؛ بل إنّ لهذا الجبل جذورًا تاريخيّة، ولهذه المقاومة جذورًا تاريخيّة وفكريّة. فالفاطميون اتّخذوا من مدينة صور مركزًا لأسطولهم البحري في مواجهة الصليبيّين، وامتنعت صور من السقوط بأيدي الصليبيّين لأكثر من عشرين عامًا. إضافةً إلى الحروب الصليبيّة وحروب صلاح الدين الأيوبي، عانى الشيعة في جبل لبنان المجازر المروّعة التي سبّبتها فتاوى «ابن تيمية»[1]؛ ثم جاء الاضطهاد العثماني، فخاض العامليون

1 – لا يوجد خلاف بين المؤرّخين، على اختلاف مشاربهم وانتمائهم، على أنّ الشيعة كانوا من سكان مناطق كسروان والمتن الأعلى. المؤرخ اللبناني كمال الصليبي يذكر أنّه في رسالة «ابن تيميّة» فيها الكثير من العناصر المهمّة عن مذهب الكسروانيين الذين أفتى ابن تيميّة بقتالهم، وفيها مقطع لا يترك مجالاً للشكّ في أنهم من الاثني عشريّة. وهذا الأمر تجلّى بذكره لإيمانهم واعتقادهم بالإمام المهديّ المنتظر، وبأنّه حجّة الله على أرضه، كما تُحدّد الرسالة مناطق انتشارهم. وبذلك تكون رسالة «ابن تيميّة» التي بعثها إلى الملك الناصر، والتي سوّغ فيها قتلهم وتخريب ديارهم. وبقي هذا الوجود حتى أواخر القرن السابع عشر، ثمّ امتدّ إلى مناطق أخرى، على قاعدة تسلُّم السلطة. وكما يقول كمال الصليبي: «إنّه منذ أواخر القرن السابع عشر، وقعت مناطق بشرّي والبترون وجبيل المارونيّة، ومنطقة الكورة الملكيّة الأرثوذكسيّة، تحت نفوذ آل حمادة الشيعة الذين تولّوا أمر هذه المناطق عن ولاة طرابلس، ولم تكن للأمراء الشهابيين في البدء سيادة عليهم». وبعد سقوط المدن اللبنانيّة الساحليّة بأيدي الصليبيين، انتقل الوجود الإسلاميّ إلى الجبال المجاورة (كسروان)، علماً أنّ هذه المناطق كانت إسلامية قبل ذلك. وقد استمرّ هذا الوجود كقلعة حصينة للإسلام إلى العام 1305م، حيث انتكس هذا الوجود انتكاسة خطيرة ومؤسفة على أيدي المماليك، نتيجة للتعصّب المذهبيّ، ولسيطرة وعّاظ السلاطين على عقول الأمراء. وقد اعتمد المماليك سنّة دينية متعصّبة، ومن أجل هذا الهدف عمدوا إلى الضغط والإرهاب والتنكيل بأتباع المذاهب الإسلامية الأخرى. وكان الناس إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسّوا عليه من رماه بالتشيّع، فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يُظهر التوبة عن التشيع. وعندما تكون القضيّة كبيرة، وتشمل منطقة بأكملها، كانت دولة المماليك تتستّر، وتختلف حججًا مختلفة، كالاتّصال بالصليبيين أو المغول أو الأيوبيين لإسقاط حكم المماليك. ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما حدث في كسروان من معارك رافقها العنف والتدمير، بالإضافة إلى فتاوى «ابن تيمية» في هدر دماء الكسروانيين الشيعة. نتج عن هذه الحملات والحروب عدّة أمور انعكست على الشيعة ومناطقهم، منها: ازدهار بعلبك بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم، ظهور مقدّمية جزّين التي كانت نواة لنهضة علمية شيعية كبيرة فيما بعد، ومقدّمية أخرى في مشغرة على أيدي عائلة صبح، ومنع الشيعة من ممارسة شعائرهم الدينية، فاعتمدوا مبدأ التقيّة، وأعلنوا انتماءهم للمذهب الشافعيّ، واستمرّ هذا الوضع حتّى قيام الحركة الشيعية على يد الشهيد الأوّل محمد بن مكّي الجزّينيّ سنة 1383م. راجع : كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، الطبعة 2، بيروت: دار نوفل، 1992، الصفحة 134– ومحمد علي مكّي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثمانيّ بيروت: دار النهار، 1985، الصفحة 229– وكمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، الطبعة 7، بيروت: دار النهار للنشر، 1991، الصفحة 32.

معارك طاحنة مع أعدائهم وحققوا بقيادة علمائهم انتصارات عديدة بسبب طاعتهم واستنفارهم في حالات التهديد والخطر للدفاع عن بلادهم. وحصلت انتكاسات عديدة ومجازر بحقهم خلال حكم المعنيين وغيرهم، وصولًا إلى مرحلة الجزار الذي طال حقده العلماء والمكتبات وأحرق البيوت والقرى.

اكتسبت المقاومة، في بلاد جبل عامل، أهميّتها التاريخيّة من خلال نضالها الدائم.

أمَّا في حقبة سيطرة المصريين وجورهم بالتعاون مع الشهابيين حصلت ثورة في جبل عامل. وعندما وقعت الحرب العالميّة الأولى وبدأ الاستعمار الفرنسي للبلاد، واجه العامليون هذا الاستعمار بالرفض وساهموا في حركة التحرر العربيّة وفي الثورة، وكان للسيد العلاّمة عبد الحسين شرف الدين دورًا تاريخيًّا في عقد مؤتمر «وادي الحجير» الشهير الذي رفض الاحتلال والوصاية وكانت شرارة الثورة. وبدأت الأعمال العسكرية ضد المستعمرين وبرز القائدان الكبيران أدهم خنجر وصادق حمزة. ثم جاء ما هو أخطر من الاستعمار والاحتلال الفرنسي والإنكليزي. وتمثل ذلك في المشروع الصهيوني الذي زرعه اليهود في المنطقة بدعم الإنكليز، وكان جبل عامل من أهم أطماع الصهاينة.

بقيت المنطقة تحت الخطر الصهيوني الموجود في فلسطين، منذ العام 1948، حتى حدثت تحوّلات غيّرت وجه العالم، حين انتصرت الثورة الإسلاميّة في إيران، وحين صمدت في وجه الحرب التي فرضها «صدام حسين»، حين حُررت «خورمشهر»، فشعر الصهاينة بالخطر فاجتاحوا لبنان في العام 1982 ووصلوا إلى نهر الليطاني. وكان الإمام الخميني + قد أرسل مجموعة من الحرس الثوري إلى لبنان، حيث بدأت مجموعات من الشباب الشيعي المؤمن بالتدرب في البقاع، فتشكّلت المقاومة التي ستُعرف لاحقًا بالمقاومة الإسلاميّة في لبنان – حزب الله.

كان للسيد العلاّمة عبد الحسين شرف الدين دورًا تاريخيًا في عقد مؤتمر «وادي الحجير» الشهير الذي رفض الاحتلال والوصاية وكانت شرارة الثورة.

ثانيًا: المقاومة والمجتمع المقاوم

اتخذت المقاومة الإسلامَ منهَج حياة على المستوى الفكري والعقائدي. والمقاومة في الشريعة واجب، فقد قال تعالى: «كُتب عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم...» [1] ولذلك نجد أنّه طوال الحقبات، كان للعلماء الدور الأبرز في تحريض الناس على مواجهة أي عدو يتربصّ بهم وعَدَّ ذلك واجبًا شرعيًا ودينيًا وتحريم التعامل مع العدو؛ كما في القول الشهير للسيد موسى الصدر: «إسرائيل شرٌّ مُطلق والتعامل معها حرام، وواجبنا أن نكون مقاومة قبل أن نُشرّد من أرضنا».

كانت المقاومة، وكان المقاومون الذين تركوا أثرًا في هذه الأرض المباركة، وتركت أثرًا فيهم. ومنهم القائد الإيراني الشهيد الدكتور «مصطفى شمران» الذي خاض حرب العصابات ضد الصهاينة. وعندما عاد إلى إيران قال: «إنني قادم من **جبل عامل** حيث دعا الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري إلى الإسلام الصحيح هناك ولأول مرة، وبنى في تلك الديار مسجدًا لعبادة الله الواحد. إنني قادم من جبل عامل الذي عانى سكانه الظلم طوال 1400 عامًا من تاريخ الإسلام. إنني مندوب المحرومين في جنوب لبنان الذين يحترقون كلّ يوم بنيران المدفعيّة الثقيلة وقنابل الطائرات الإسرائيليّة، لقد جئت من أرضٍ أُبيد أكثر من نصفها بشكل تام.. جئت لأرفع صرخة الشيعة اللبنانيين المدوية تحت سماء إيران العالية، إنني آهة اليتامى المعذبين الموجعه...».

اتخذت المقاومة الإسلامَ منهجَ حياة على المستوى الفكري والعقائدي.

أكمل جبل عامل دوره في المقاومة، وفي رفع الصوت في وجه الطغاة ونصرة المظلومين والوقوف مع قضايا الحق في كلّ مكان، في أثناء عدوان السويس وفي تبني القضية الفلسطينية واحتضان الفلسطينيين، ثم جاءت الحرب الأهليّة في لبنان، وحدثت تطورات كثيرة وبقيت المقاومة على السّاحة بحضورها الذي كان يكبر بشكل لم يكن

1 – سورة البقرة، الآية 216.

يتصوّره إلا من يعي جذور المقاومة. وتحقق الانتصار العربي لأوّل مرة، في جبل عامل عام 2000م ثم انتصار تموز 2006م. ومع دخول المقاومة في مواجهة التكفيريين خارج الحدود الجغرافيّة للبنان، في سوريا والعراق أصبحت قوّة إقليميّة لا يستهان بها.

هذه القوة الإقليميّة مرت بعدة أجيال. لم تكن تلك الأجيال متشابهة على المستوى الظاهري، ولم تكن آثار الحرب على المقاومة هي نفسها في المراحل كلّها.

أكمل جبل عامل دوره في المقاومة، وفي رفع الصوت في وجه الطغاة ونصرة المظلومين والوقوف مع قضايا الحق في كلّ مكان.

تتمحور إشكالية بحثنا حول آثار تبدل ثقافة وخصوصية مجتمع المقاومة بين 1982م و2020م، وكيف انتقلت المقاومة من مفهوم الانكسار إلى مفهوم الانتصار، ورسّخته في المجتمعين العربي والإسلامي، وما هي أسباب بقائها رغم مرور أجيال على نشوئها؟

تؤكّد المقاومة أنّها تمتلك مجتمعًا مقاومًا وليس مجموعة أو جماعة؛ ذلك أنّ المجتمع له معنى واسع ينطوي على الاقتصاد والثقافة والسياسة والإعلام وغير ذلك. ويذهب الشهيد مطهري إلى القول بأصالة المجتمع بعد أن يُعرض لأربعة تصوّرات، يتبنى تصوّر أصالة الفرد وأصالة المجتمع معًا. «وأما النظرية الثالثة فتلتزم بأصالة الفرد والمجتمع معًا. وهي من جهة ترفض انحلال وجود الأفراد في الكل، وترفض وجودًا مستقلًا للمجتمع على غرار المركبات الكيماوية، وبذلك تلتزم بأصالة الفرد. ومن جهة، تلتزم بوجود تركيب من قبيل التركيب الكيماوي بين الشؤون الروحيّة والفكريّة والعاطفيّة للأفراد، وتلتزم بأنَّ الفرد يكتسب ماهيّة جديدة بالاندراج في المجتمع هي الماهيَّة الاجتماعيَّة بالرغم من عدم وجود ماهيَّة مستقلة للمجتمع نفسه»[1].

تؤكدّ المقاومة أنّها تمتلك مجتمعًا مقاومًا وليس مجموعة أو جماعة؛ ذلك أنّ المجتمع له معنى واسع ينطوي على الاقتصاد والثقافة والسياسة والإعلام وغير ذلك.

1 – مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ، من منشورات سلسلة تراث وأثار، جمعية المعارف الإسلامية، بيروت، 2015م، ص 18.

هذا ما تؤيّده الآيات القرآنية الكريمة، فالقرآن الكريم يؤكّد على حيثيّة الأمّة والمجتمع وأصالتهما؛ «إن إبراهيم كان أمّة»[1]، «ولتكن منكم أمّة»[2]، وكما يحاسب الفرد يحاسب المجتمع والأمّة. «يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم»[3]. والمجتمع المقاوم هو المجتمع الذي يتميّز بخصائص فكريّة واجتماعيّة وغير ذلك. وفرادة مجتمعنا هو ارتباطه بالجذور العميقة في التاريخ. ولكن المتغيّر هو بعض العادات التي اختلفت بين الأجيال المتلاحقة للمقاومة، كما هو الحال في اختلاف التكتيكات العسكرية بين 1982م و2000م ثم حرب سوريا.

يتميّز المجتمع بخصائص فكريّة واجتماعيّة

لذلك أطلق الإمام موسى الصدر فكرة «مجتمع الحرب»، وهو يقصد إقامة بنية متكاملة للمواجهة تتجاوز المواجهة العسكرية، ففي رأيه أنّ المجتمع المحارب يجب أن يكون مجتمع حرب لا مجتمع تراخٍ وترف. وكان يردد: «ليس في العالم شعبٌ صغير وشعبٌ كبير، بل شعب يريد الحياة وشعبٌ لا يريدها، وما يجب أن نفكر فيه هو كيف نصنع المجتمع البطل».

أطلق الإمام موسى الصدر فكرة «مجتمع الحرب»، وهو يقصد إقامة بنية متكاملة للمواجهة تتجاوز المواجهة العسكرية، ففي رأيه أنّ المجتمع المحارب يجب أن يكون مجتمع حرب لا مجتمع تراخٍ وترف.

1 – سورة النخل، الآية 120.
2 – سورة آل عمران، الآية 104.
3 – سورة الإسراء، الآية 71.

ثالثًا: كيف نقلت المقاومة المجتمع العربي من مفهوم الانكسار إلى مفهوم الانتصار؟

عندما نأتي على دراسة الظواهر الاجتماعيّة والثقافيّة في مجتمع ما، فإنّنا ندرس الظواهر التاريخيّة التي تصنع نمط الأفكار، والظاهرة والحدث جزء من تاريخ المجتمع؛ وهذا ما يدرسه علم الاجتماع والانتروبولوجيا. ولعلّ ظاهرة حزب الله الذي يحمل اسم الإسلام ويوالي الفقيه في إيران، ويعيش في بيئة متنوعة طائفيًا ومذهبيًا بحيث يسعى ليوازن بين العديد من الانتماءات، هي الأبرز في مجتمعنا. فقد تبنّى حزب الله خطًا جهاديًا غير مساوم، عبّر عنه في رسالته المفتوحة، في 16 شباط 1985: «إنّنا أبناء أمّة حزب الله... نلتزم بأوامر قيادة واحدة حكيمة عادلة...». وبدأ يتبلور التيار الإسلامي المقاوم في لبنان، وسار في مسارين متوازيين الأوّل يطرح الإسلام منهجًا وسلوكًا في الحياة والسّياسة والمجتمع باعتماد ثقافة القرآن الكريم والسّنة النبويّة الشريفة ونهج أهل البيت ^ ، والثاني القتال بروحيّة ثوريّة جهاديّة ضد كلّ قوى الاستكبار بخاصّة العدو الصهيوني.

مع أنّ الكثير من فصائل المقاومة اللبنانيّة ضدَّ الاحتلال قدّمت التضحيات، إلّا أنّ المقاومة الإسلاميّة كانت لها خاصّيّة البعد الديني، الإيمان بالإسلام نهجًا وسلوكًا حتى أصبح اسم الإسلام ملاصقًا لتسميتها «المقاومة الإسلاميّة في لبنان – حزب الله»؛ وهو السبب الحقيقي لاستمرارها رغم كلّ ما مرّت به من تحدّيات، ورغم الضعف المادي الكبير في بداية الطريق مقارنةً بجبروت العدو وإمكانيّاته وقُدُراته. يقول سماحة الأمين العام السّيد حسن نصر الله عن المقاومين: «قاتلوا دفاعًا عن وطنٍ وشعب، عن أمّتهم ومقدّساتهم عن محمّد والمسيح، قاتلوا واستشهدوا ليعيش كلّ لبناني بحريّة وكرامة، قاتلوا وكان فعلُ إيمانٍ برسالات السّماء، فعلُ دينٍ لم يكن فعل انتماء لطائفة ولا عقيدة طائفة، إنما كان فكرًا إيمانيًا وعقيدة إيمانية واستجابة لنداء الله».

كان للشعائر الدينيّة والأيدولوجيات دور كبير في إحياء التراث الإسلامي والعاشورائي، وهو أوّل ما عبر عنه الإمام الخميني (قده) الذي ربط الشعب بجذوره وهويّته التاريخيّة حين قال: «إنّ كلّ ما لدينا من عاشوراء». ثم كان الإمام موسى الصدر الذي أسّس مقاومة من أفراد من الشيعة، والذين كان معظمهم مشتّتين في أحزاب يساريّة وعلمانيّة أو غير إسلاميّة ليرفع وصية أحد الشهداء: «كونوا مؤمنين حسينيين». فالمقاومة ولدت في مجتمعٍ غارقٍ بثقافة الهزيمة التي عصفت به الواحدة تلو الأخرى، ثم فجأة بدأت بذور ثقافة تاريخيّة تلوح في الأفق، وتسير بعكس تيارٍ مهيمن على الواقع، لتتجاوز العوائق السياسيّة والعسكريّة والثقافيّة، وتُحدث انقلابًا في الثقافة الاجتماعيّة وتغيّر المشهد القائم. فكيف حدث هذا الانقلاب في القيم والمفاهيم ومن هم من أحدثه؟ وما سرّ بقائه واستمراره مع الأجيال؟

كان للشعائر الدينيّة والأيدولوجيات دور كبير في إحياء التراث الإسلامي والعاشورائي.

صورة المقاتل بين 1982م و2020م وفلسفة الجهاد والشّهادة

تجسّدت صورة مقاتل حزب الله في أذهان النّاس، منذ العام 1982م إلى العام 2000 م بأنّه ذلك الشاب أو الرجل ذو اللحية والخاتم والقميص المزرّر حتى آخر زر حول رقبته، والذي يحمل البندقية (الأمْسكستين غالبًا أو الكلاشنكوف) في يمينه والعلم الأصفر في يساره. هو ذو الروحيّة الايمانيّة والجهاديّة والقدرة العسكريّة، والمنضبط الملتزم بالأوامر التنظيميّة؛ وهو الذي ينتمي غالبًا إلى طبقة الكادحين من أبناء جبل العامل المحروم أو البقاع المحروم. هؤلاء الفقراء الذين حرضهم السيد موسى الصدر على قتال إسرائيل رافعًا شعار «السّلاح زينة الرجال».

هذا على مستوى الظاهر، أما على مستوى المضمون فقد اتّصف رجال المقاومة بالنضج العقائدي والفكري بامتلاكهم للثقافة الإيمانيّة التي تجعلهم يختارون الجهاد والاستشهاد، بشكلٍ طوعي وعن إرادةٍ وتصميم وعزم، كونها واجبًا دينيًا ووطنيًا. ولفلسفة الشّهادة الحسينيّة حيثيّة خاصّة عند الشّيعة، بشكلٍ عام، وفي أدبيّات حزب الله بشكل خاص. فشهادة الإمام الحسين × في كربلاء تثبت مبدأ شرعيّة المقاومة ضد كلّ ظالم وطاغٍ، مهما كانت قوته الماديّة والعسكريّة، كما أنّ الشهادة تحيي الأمّة وتبثّ الوعي في وجدانها، إذ يقول السيد موسى الصدر: «الحسين باستشهاده صان القيم، وبموته أحياها».

تجسّدت صورة مقاتل حزب الله في أذهان النّاس، منذ العام 1982م إلى العام م2000 بأنّه ذو الروحيّة الايمانيّة والجهاديّة والقدرة العسكريّة، والمنضبط الملتزم بالأوامر التنظيميّة؛

إنَّ هذه الثقافة وهذا الخطاب، خطاب الجهاد والشّهادة المرتبط بالتاريخ والهويّة، أحدثت المقاومة اللبنانيّة، التي أصبحت إسلاميّة، نقلة نوعيّة على مستوى العالم العربي ليتحول الانكسار إلى انتصار، وهيمنة واقع الهزائم إلى أمل بالتحرير. وكان التحرير في العام 2000م حدثًا خارقًا لم يعهده العرب منذ وجود الكيان الصهيوني في منطقتنا منذ عام 1948م، وهو حدثٌ عظيمٌ لا يستهان به رغم محاولات التقليل من أهميته. إذ إنّ سرّ النصر كان واضحًا جليًا في خطاب سماحة السّيد نصرالله، في يوم التحرير في بنت جبيل في جبل عامل، حين قال: «نلتقي في عمق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادها الوطن، في أربعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين × لنؤكّد من جديد مقولته وخطّه، لنثبت أنّ الدّم هنا ينتصر على السّيف، وأنّ الدّم هنا قهر السّيف وهزمه، وأنّ الدم هنا حطم كلّ قيد، وأنّ الدّم هنا أذلّ كلّ طاغية ومستكبر، نلتقي هنا لنحتفل بالنصر الذي صنعته الشّهادة وصنعته الدّماء».

أما على مستوى المضمون فقد اتّصف رجال المقاومة بالنضج العقائدي والفكري بامتلاكهم للثقافة الإيمانيّة التي تجعلهم يختارون الجهاد والاستشهاد

لم يتغير خطاب المقاومة التعبوي، ولم يتغيّر أسلوبها السياسي والإعلامي ضد العدو رغم كلّ محاولات الأخير للتطبيع مع الدّول العربيّة، ومحاولات الأخيرة للتواصل بأشكال مختلفة مع العدو. كما لم يتغير الشّعار والهدف الذي رفعه الحزب منذ البدايات، وهو «إزالة إسرائيل من الوجود». وبقيت المقاومة الإسلاميّة رأس الحربة في الصراع مع الكيان الصهيوني الذي كان يزيل من أمامه كلّ العقبات لكيٍّ الوعي عند الشّعوب العربيَّة بعد أن قطع شوطًا كبيرًا وسهلًا في تطويع الأنظمة العربيّة.

لكنّ العقبة الأساسيّة أمام مشروع متكامل مُعدّ لمنطقة «الشرق الأوسط» هي حزب الله، وكان يجب إنهاؤه في حرب أُعدّ لها. وكانت حرب الثلاث وثلاثين يومًا، في 12 تموز من العام 2006م، انتصر فيها حزب الله مجددًا سياسيًا وعسكريًا وإعلاميًا وشعبيًا على مستوى العالمين العربي والإسلامي. وهنا نجد مجدّدًا كيف تتحطّم مشاريع الاستعمار والاحتلال في هذه البقعة الجغرافيّة، جبل عامل.

أهم من هذا الانتصار العسكري هو ما أحيته المقاومة من ثقة عند الشّعوب العربيّة والإسلامية، ومن وعي جديد يحلّ محلّ الوعي الذي زرعه العدو طوال عقود بأنّنا شعوب عاجزة غير قادرة على النصر، وبأنّه كيان وجيش لا يُقهران. فبدأت ثقافة جديدة تترسّخ، لأوّل مرة منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي، ومن إيمان بالذات وبالمدد الغيبي، وانتصار تموز 2006م جاء ليعبّر عن تلك الحقيقة، بشكل واضح، حيث أطلقت المقاومة منذ اللحظة الأولى على نصر تموز العام 2006م صفة «النّصر الإلهي»؛ حين سمعناه لأوّل مرة من سماحة الأمين العام السيد حسن نصرالله بعيد انتهاء المعارك مباشرة.

صورة المقاتل الجديدة

أظهرت حرب تموز 2006م حصول تحوّلٍ استراتيجي في قدرات القوّة العسكريّة لحزب الله وبنيته الجهاديّة، وهذا ما ظهر جليًا لاحقًا في الحرب على التكفيريين في سوريا ولبنان، الأمر الذي أحدث تغيّرًا كبيرًا في النظرة إلى مقاتلي الحزب، وكأنّهم خرجوا من حرب تموز بحلّة جديدة. وفي الواقع، إنّنا نتكلم عن جيل جديد يختلف من حيث الشكل حتمًا عن الأجيال السابقة، فكما كانت المقاومة تتطوّر في استخدام الأساليب العسكريّة والإعلاميّة وغيرها، كان يرافق ذلك تطوّرًا في أسلوب حياة المقاوم ونمط عيشه. وهنا بدأ الكثيرون يتحدّثون عن الجيل الجديد للمقاومة، وهل سيكون مختلفًا عن الأجيال السابقة، وطرح بعضهم نظرية الأطوار الخمسة والأجيال الأربعة وهرم الدّولة عند عالم الاجتماع العربي الشهير «ابن خلدون»، وحاول آخرون فهم سبب بقاء المقاومة خلافًا لتلك النظريّة.

إذ إنّ الدول هي مثل الإنسان، تعيش بمراحل عمريّة بدءًا من الولادة إلى الشيخوخة والموت. وقد تحدّث «ابن خلدون» عن هذه المراحل وقسّمها إلى أربعة أجيال، حيث يضعف الجيل الرابع وتتبدّل أفكاره أو ربما حماسه على الأقل. فقد تحدث في مقدّمته عن أنّ نهاية الحسب والمجد تكون في أربعة أجيال، حيث الأوّل «بانٍ للمجد، عالم بما عاناه في بنائه، ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه». والثاني «مباشر له (لأبيه) فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه، إلّا أنّه مقصرٌ في ذلك تقصير السّامع بالشيء عن المعاين له»، ثم الثالث الذي يكون «حظه الاقتفاء والتقليد خاصّة، فقصّر عن الثاني تقصير المقلّد عن المجتهد»، وأخيرًا الرابع «الذي يخالف نهج أسلافه ويقلبه رأسًا على عقب»[1].

راهن العدو على أنّ الوقت سيُضعف المقاومة وربما تنتهي بنفسها حتى مع بقاء سلاحها، تنتهي كفكرة أو كقيمة. ولكن المقاومة بقيت بل تطورت مع الأجيال، ووصلت المقاومة بالفعل إلى جيلها الرابع.

1 – مقدّمة ابن خلدون، ولي الدين عبد الراحمن بن محمد ابن خلدون، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط 10، 1997م.

صحيح أنّ المقاومة ليست دولة، ولم تسعَ للوصول إلى السلطة وحين شاركت في العمل السياسي كان الهدف حماية المقاومة نفسها. إلا أنّها نابت عن الدولة حين غابت الأخيرة أو ضعفت في الكثير من الأمور، وعلى رأسها حمل السلاح والدفاع عن الحدود. وقد يجري عليها ما يجري على الدّول والمؤسسات الكبرى. وربما راهن العدو على أنّ الوقت سيُضعف المقاومة وربما تنتهي بنفسها حتى مع بقاء سلاحها، تنتهي كفكرة أو كقيمة. ولكن المقاومة بقيت بل تطورت مع الأجيال، ووصلت المقاومة بالفعل إلى جيلها الرابع، والذي ظهر مختلفًا عن الأجيال السّابقة. ومع ذلك بدت المقاومة أقوى بل وكأنّ لها مع كلّ جيل ولادة جديدة، مخالفةً بذلك نظريّة ابن خلدون. فما سر هذا البقاء؟

يُعدّ النصر الإلهي والمدد الغيبي المعروف في أدبيات المقاومة الإسلاميّة من أهم الأسباب التي حفظت وتحفظ المقاومة وهذا ما عبر عنه أمينها العام في العديد من المناسبات، بخاصَّة بعد نصر تموز الذي اشتهر باسم النصر الإلهي. ولكن، إضافةً إلى المدد الغيبي، تُؤمِن المقاومة أيضًا بالعوامل البشرية التي هي أساس في جريان السنن التاريخيّة ومن أهمها المدد الغيبي. فالمقاومة إضافةً إلى خبراتها العسكريّة بنَت المؤسّسات السياسيّة والصحيّة والإعلاميّة والماليّة وغيرها، كما أنّ لها إدارة وتنظيمًا دقيقين وأجهزة مختلفة أخرى وصولًا إلى الجهاد الاقتصادي الذي بدأ يتفعَّل مع الأزمة الأخيرة المفتعلة التي عصفت بالسّاحة في محاولةٍ جديدة لكسر مجتمع المقاومة.

يُعدّ النصر الإلهي والمدد الغيبي المعروف في أدبيات المقاومة الإسلاميّة من أهم الأسباب التي حفظت وتحفظ المقاومة.

لكن هذا الأمر يستطيع أن يفعله الحزب بالمال والعقل والتجربة؛ بل يمكن لأي حزب أن يفعله. غير أنّ الذي يميّز حزب الله أمر آخر لم يفهمه العدو والخصم على حد سواء. مع أنّ القائد الجهادي الكبير الشهيد «عماد

مغنية» عبّر عنه ولخّصه في كلمات قليلة فيها جوامع الكلم عندما قال بالعامية: «اللي بتقاتل فينا هيي الروح».

الروح إذًا هي السرّ، وهي التي انتقلت بين الأجيال الأربعة، توارثتها عن بعضها. فليس غريبًا أن نجد بين المقاتلين الجدد بعض السلوكيات والمظاهر خارج دائرة ترك الواجب أو فعل الحرام، والتي قد لا نرتضيها للمجاهد. ولكن لو نظرنا إلى المضمون وإلى الروح سنجدها تنبض بالمفاهيم نفسها، وبالثوريّة نفسها وبحب الجهاد والاستشهاد نفسه، وبالثقافة الإيمانيّة الولائيّة نفسها. هنا تنقلب النظريّة ويصبح الجيل الرابع هو الأشد والأقوى؛ لأنّه توارث التجربة مع بقاء الروحيّة ذاتها؛ بل إنّها في ازدياد، فالذي لم يتغّير في الجيل الرابع ليس فقط بقاء الحافز للمقاومة وفلسفة الشهادة والاستشهاد، بل إنَّ الجيل الجديد لديه العزم لدخول الجليل ولمحو الكيان الصهيوني من الوجود.

«اللي بتقاتل فينا هيي الروح».

لقد تغيّرت الكثير من الأمور بين الأجيال، بين جماعة 82 (كما اصطلح على تسمية القدامى) وجيل 2006، ولكن ما هو ثابت لم يتغّير في هذا الجبل الذي يُنسب إلى أبي ذر الغفاري أمور جوهرية؛ أهمها:

- قداسة العلماء والطاعة والتزام التكليف الشرعي.
- رفض الظلم والثورة بوجه الظالم، وهي ثقافة عاشوراء الخالدة.
- الشجاعة وعدم الضعف حتى لو كانوا وحدهم وكلّ العالم ضدهم.
- الارتباط بالغيب وأهم مفرداته الإمام المهدي (عج) الموجود واقعًا، وهو القائد الفعلي الذي لا يمكن للعدوّ أن يصل إليه.
- التزام ولاية الفقيه التي تجعل الإسلام في حركة عمليّة مستمرة في المجتمع نحو التكامل.
- الروحيّة الإيمانيّة والجهاديّة المستمرة.

- استثمار الإمكانات والإفادة من العلم والعقل والطاقات الإنسانيّة ومن التجربة والإبداع.
- الفرادة في تقديم النماذج القياديّة والاستشهاديّة.
- شوق الفتية والشباب للالتحاق بسنّ مبكرة في صفوف المقاومة، وإنتاج المقاومة الدائم لنموذج الشاب المؤمن الذي لا تحرفه مغريات الدنيا.
- الانضباط الشديد والتزام أوامر القيادة بحذافيرها.
- تجسيد الشعارات التي ترفعها المقاومة وتنفيذها في الواقع.
- حضور الوطن والانتماء للوطن في مفهوم حزب الله، بشكل لا يتنافى والانتماء إلى الإسلام والأمّة.
- التركيز على الهدف الاستراتيجي أو التكتيكي والعمل في الليل والنهار على تحقيقه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة).

إنّ النداء الذي صدح به الجيل الأول، كأنَّه قد نفخه في روح الجيل الثاني والثالث والرابع الذي يجد نفسه اليوم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النداء. «وطائرة حسّان» حملت ذلك النداء مع الأثير وبثّته فوق مدن فلسطين لمدة أربعين دقيقة على مساحة سبعين كيلومترًا: «يا قدس.. إنّنا... قادمون».

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، ط 4، 1972م.
3. إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شباط 1978م.
4. أدونيس، زمن الشّعر، دار العودة، بيروت، ط 2، 1978م.
5. أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر، بيروت، ط 5، 1986م.
6. أنطوان عكاري، الأشعار الشّعبية اللبنانيّة دراسة بعض نماذجها الحلوة، جروس بروس، طرابلس، لبنان، 2005م.
7. جابر عصفور، نقد ثقافة التخلّف، الهيئة المصريَّة العامّة للكتاب، مصر، 2009م.
8. جيهان فوزي، أدب المقاومة الفلسطيني ومكانة الأرض في الأدب، موقع المصري اليوم، 17/5/2014.
9. حسين جمعة، ثقافة المقاومة إعادة بناء الذّات العربية، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، دمشق، ط 1، 2014م.
10. خديجة شهاب، زهرة الحرّ شاعرة جبل عامل، دار البنان، ط 1، 1999م.
11. السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، مطبعة الإنصاف، بيروت، لبنان، ج 1، 1961م.
12. عبد العزيز نجم، مدوّنة واحة الأرواح، إطلالة على أدب المقاومة، 2010/04/23.
13. عبد المجيد زراقط، مؤتمر أدب المقاومة ومواجهة الحرب الناعمة، الأونيسكو بيروت، جلسة عُقدت في 2014/05/19 م.
14. علي مهدي زيتون، الشعر كتاب الثقافة، دار العودة، بيروت، ط 1، 2013م.
15. علي مهدي زيتون، في مدار النقد الأدبي، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 2011م.
16. غالي شكري، أدب المقاومة، دار المعارف بمصر، لا طبعة، لا تاريخ.
17. فايز رشيد، ثقافة المقاومة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2004م.
18. فريدريك نيتشه، أفول الأصنام، ترجمة سليمان حسون، دار الكوثر، سوريا، 2009م.

19. كليمون روسي في حوار مع مجلة Philo Mag، عدد خاص حول نيتشه، 2014م.

20. كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، ط 7، 1991م.

21. كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، دار نوفل، بيروت، ط 2، 1992م.

22. محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة، لا طبعة، لا تاريخ.

23. محمد علي مكّي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثمانيّ دار النهار، بيروت، 1985م.

24. محمد غنيمي هلال، النّقد الأدبيّ الحديث، دار الثقافة، ودار العودة، بيروت، ط 1، 1973م.

25. محمد كاظم مكّي، الحركة الفكريّة والأدبية في جبل عامل، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 1، 1963م.

26. مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ، من منشورات سلسلة تراث وأثار، جمعيَّة المعارف الإسلامية، بيروت، 2015م.

27. مسعود ضاهر، الثقافة المقاومة دراسة في المنهج، مجلة الآداب، العددين 9 و10، 1992م.

28. مقدّمة ابن خلدون، ولي الدين عبد الراحمن بن محمد ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، ط 10، 1997م.

29. يمنى العيد، في القول الشعري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987م.